نساء فى الجحيم

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
مصطفى الدناصورى

التصميم الداخلى
وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2017 - 2757
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 27 - 5

عائشة بنّور

رواية
نساء في الجحيم

٢٠١٧

الإهداء...

إلى:

الذين عطّروا الأرض بدمائهم في الجزائر وفلسطين.. دلال المغربي، مريم بوعتورة، غسان كنفاني، شادية أبو غزالة، ناجي العلي... وكل شهداء الحرية.....

عائشة

ويا صديقي غسان!

إن البياض أمامي كثير ودمك الذي لا يجف مازال يلوّن. لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت أودعك. جئت ورأيتك كيف تذهب. لقد اتسعت مساحة الأرض المحتلة ولم يعد ذلك ميزة. ودورة السجون تدور.. تودع وتستقبل. وكل أرض ترى استشهاد أبناء شعبي. ونحن مطاردون في كل مكان. والكاتب ملعون ومتهم بالحياة والكتابة. والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفا واحدا. وأين هي الأرض غير المحتلة في الكون؟ وأين هي الأرض المحتلة في الثورة ؟

ويا صديقي غسان!

لم تتناول طعام الغداء الأخير ولم تعتذر عن تأخرك.

تناولت ساعة التلفون لألعنك كالمعتاد:" الساعة الثانية ولم تصل كف عن هذه العادة السيئة".

ولكنهم قالوا لي: قد انفجـر!

محمود درويش

عصفوري طائر المَحَنَا

"إن الشيء الوحيد الذي أردته في حياتي لا أستطيع الحصول عليه،لقد تبين لي أن حياتي جميعها كانت سلسلة من الرفض..."

غسان كنفاني

ارتعدت فرائصى وانتابنى احساس بالمرارة عندما استعدت ذاكرتى المشروخة عبر أحد شوارع المدن التى أزورها اليوم وأبكى فى صمت قاتل، أشعر بالفقد والضياع الموحش، أتذكر عائلة عمى العكّاوى التى هُجّرت من بلد إلى بلد ثم حطّت الرحال بدمشق مدينة الياسمين وأتساءل حينها:

- ماذا يفعل غسان بها؟
- هل عرف أزقتها وحاراتها وأسواقها وبيوتها العربية؟
- هل نسينا ونسى الضيعة، وهو الآن يتجول فى القلعة والجامع الأموى وقصر العظم وقصر الخضراء؟
- ماذا تفعل عائلة سى الأشرف بعدما دفنت أباها وتركت قبره وراءها فى الضيعة، وهى لا تعلم بأن الجرافة رمت برفاته فى ركام الحفر لبناء المستوطنات الجديدة.

- هل عاد ناجى إلى بيته، وترك مخيّم عين الحلوة جنوب لبنان، أم مازال هو الآخر مثلنا، يبحث عن وطنه بعدما اعتقلته يد الاحتلال وهو صغير لم يتجاوز عشر سنين؟

- هل مازال يذكرنى وراء القضبان؟

أنا لم أنس يا صديقى رسوماتك الكاريكاتورية على جدران بيتنا، ولم أنس قريبة أمى الدمشقية غادة، العاشقة الجريحة التى حرمت من أمها وهى صغيرة تتفقدنى من حين لآخر وتطمئن عليَّ، ولم أنس أصدقاء الطفولة يافا ورولا وابنة جدى اليعقوبى نابلس وأندريا اليهودي، ولم أنس كلبنا تيو، ولم أنس أرضي، ولم أنس جراحى ولحظتى الخرساء وذراع أمى المقطوعة، ولم أنس.. ولم أنس..

ثم تذكرت قول جدّى اليعقوبى آنذاك رغم أننى لم أستوعب قصده:

- الأرواح تسكن الأمكنة يا صغيرتى أيلول!!

بقيت برهة، وأنا واقفة أمام خيمتى القابعة وسط المخيّم، بعين الحلوة أطّل على المدينة البعيدة (عكّا)، تلفنى نسمات بحرية بعبق اللوز، تسرق من صمتى مراكب مهترئة وأنفاسا محترقة.

عكّا، مدينة الرمل الحار ولحظة الولادة، ويافا لحظة التهجير والوجع، وفى كل مرة فاصل زمن يشدّنى إليهما كحبل الوريد...

كنت غائبة عن الوطن بكل الألم الذى يسكنني، وعند عودتى توقفت مع ذكرياتى وصور حميمية ومؤلمة أسترجعها مع أولئك الذين جمعتنى

بهم الأقدار، أو رسموا لحياتى معالم وشكلوا من روحى نبض الحياة من جديد..

فكّرت أنه لا شيء يهم، ولكن فى الحقيقة أن كل الأشياء بتفاصيلها كانت تهمني، أشياء كثيرة كنت أبحث عنها فى ذاكرة تجرنى إلى الوراء، وتستوطننى حد العجز، وفى كل مرة ألوذ بالصمت بعد رحلة مريرة ومفجعة، وما بقى فى جعبة الذاكرة سيرمى بظلاله على حياتى القادمة...

كانت توقظنى زقزقة عصفورى طائر المحنا أو الحسون فى الصباح الباكر، عصفور قرمزى اللون، نشط وحيوي، أغازله كلما أحسست بوحدتي، وأقدم له الطعام وهو يفتح منقاره الصغير وكلى دهشة وانبهار، وأصبحنا رفيقين حميمين.

عصفورى لا يرحل ولا يسافر، هو يسافر فى حلمى ويطير فى قفصى الصغير ويرقص فوق أغصان أشجار الزيتون التى وضعتها داخل القفص، كنت أحاول أن أجد له مساحة من الطبيعة حتى لا يضجر من ملاحقة الفراغ الضيق.

كنت أعرف لغته، فهو يطلق تغريدة الغزل ناعمة، وحينما أحس أنه يحتاج إلى أنيس أخرجه إلى ساحة الحديقة ببيتنا الكبير وأعلق القفص على أحد فروع شجرة العليق أو التوت التى تتوسط الباحة فيلتف حولها سرب من الطيور الجميلة بألوانها الزاهية، وتكون فرحة عصفورى الصغير كبيرة وهو يرقص فى قفصه مزهوا بهم وبصوته

العذب، والعصافير من حوله تلتقط حبات التوت، فأهرع إليه وأقطف له حبيبات حتى لا أشعره بالوحدة، وأرمى له ببعض بذور الكتان داخل القفص.

قلت..

أنهض فى الصباح الباكر مبتهجة، وأحيانا متكاسلة من كثرة استيقاظى ليلا لرعايته وإنارة المكان له، وأتحدث إليه بحب كبير وهو يطير من مكان إلى مكان فوق غصن الزيتون الأخضر.

كانت تغريدته الصباحية تثير شجون أبى سالم ومن سجنه، كان دائما يتوعدنى بأنه سيطلق سراحه، لأنه لا يقبل أن تسجن العصافير، أما أنا فكنت أستقبل كلامه بنوع من الدهشة الجميلة.

ذات يوم أخذ غليونه وهو يستنشق دخانه المعطر ويردف بنبرة صوت مؤنبة قائلا لي:

ـ خلق الله الإنسان حرا.

شعرت باضطرابه وقلقه، وكالعادة لا أفقه من كلامه شيئا سوى أننى أحب عصفورى طائر المحنا وهو فى غرفتى واستمتع بتغريداته الجميلة والحنونة.

كل مساء أخرج إلى أعلى الربوة المطلة على ضيعتنا الجميلة ومعى عصفورى طائر المحنا، وتحت شجرة الزيتون الوارفة ظلاّلها نلعب ونلهو حينما يكون أبى فى مزاج رائق.

سمعت أمى فدوى ذات ليلة تقول له:

- إنها صغيرة على هذا الكلام الكبير يا رجل؟

يردّ عليها وهو يتمتم:

- مم..مم..

فهمت.. فهمت..

ثم يناديني:

- أيلول.. أيلول..

لم أجبه، كنت أسترق السمع من خلف الباب ثم أرقب سحنة وجهه إن تغيّرت.

بقيت برهة أرقبه، ثم عدت وضحكت مع عصفورى وغطست كسمكة صغيرة فى عمق فراشي، ولزمت الصمت أنتظر خروج أبى سالم.

فى الحقيقة كنت لا أريد أن أفهم شيئا، وكل ما أتمناه أن يبقى عصفورى طائر المَحَنَا يزين غرفتى وصوته الدافئ يشبع غروري، أستلقى معه على العشب الأخضر تحت شجرة الزيتون وأركض معه فى البرارى والمروج الخضراء وأقطف الزهر والأقحوان وأجرى خلف القطعان، فكل الرعاة يعرفون شرودى بين قطيع الغنم وجريى وراء الماعز التى تتسلق الأشجار غير آبهة بخوفي، فقد تعلمت معها رحلة البحث عن الكلأ والتوهان وطريق العودة.

أرصد كل حركاتها وأجهش بالصراخ الناطق بداخلى كلما بقيت وحدى فى العراء، وحينما تبتعد عنى أشد أنفاسى المتقطعة ولهاثى وأبحث عن أبى وعصفورى طائر الحسون.

وعندما أتعب من ركضى الجامح، أعود إلى البيت بعدما أكون قد أفرغت كل شحنات الغضب والفرح بوجه متورد وعينين ضاحكتين وقلبى بدقات متسارعة يسابق لهاثي، وحين عودتنا أمر بالقرب من بيت صديقى أندريا، الذى أجده ينتظرنى بحبات الحلوى المعسلة وهو يلعب مع صديقاتى يافا وورولا.

ذات يوم، كان أبى سالم جالسا يسند ظهره على كرسى خشبى قديم، يرتشف قهوته ويدخن غليونه وبالقرب منه كلبنا تيو ذو الذيل الأبتر وهو يتودد إلى أبى فى حنو أن يعطف عليه ويرمى له بقطعة خبز من السلة المحاذية له.

لكن أبى لم ينتبه لذلك، فقد كان يسبح مع دخانه فى الفضاء رافعا رأسه، مراقبا العصافير وهى تُقبِل بعضها البعض، فقد كان فصل الربيع، شهر التلاقح والفرح، فى انتظار جدّى اليعقوبى الذى يناهز عمره السادسة والثمانين يمر عليه من حين لآخر، ورغم كبره وتقدّمه فى السّنِّ إلاّ أنه لا يزال يتمتع بكل قواه العقلية والجسدية، مقارنة مع ما يعانيه أبى من أمراض العصر.

الرَّجُلُ المسّن سمت مكانته، وحظيّ بمنزلة ورفعة واحترام كبير بين الأهالى فى الضيعة لشجاعته وحكمته، ممّا زاد فى افتخارى والتباهى به.

أبى سالم غارق فى ذكرياته وسط طنين النحل الذى يحوم فوق رأسه، غير أنه لا يبدى أية حركة، كان يستنشق عبير الزهر، وربما

تذكر أمى فدوى بعيونها السوداء الواسعة، وشعرها الأسود الطويل وقصة زواجهما.

كان أبى فى خلوته ينصت بنشوة إلى سيمفونية الطبيعة، وينظر بشرود إلى الدروب المتداخلة بين الأعشاب وقد أشرق صباح يوم ربيعى صاف على محيا الضيعة الهادئة.

شعر أبى سالم بحركات تتبعه ونظرات تراقبه من بعيد فاعتدل فى جلسته، وهو الذى كان يرى أعماق دواخله فيتعرى الحب أمامه للحظات، يقلب ذكريات الأيام الخوالى باستمتاع بعدما فغرت أعماقه المظلمة فاها أمام عينيه المغمضتين.

بقى تيو على حاله وطال انتظاره وهو يرقب حركات أبى اللاإرادية ويحسب عفويتها بعينين حالمتين بقطعة خبز شهي، وطال انتظاره وطال غرق أبى فى ذكرياته ونسى بجانبه كلبَه تيو.

لقد كان عالمنا فى مدينة عكّا نشطا، وأرضنا تعج بالفوضى والمرح والطرب أحيانا، وبالهدوء أحيانا أخرى، سماؤنا وبحرنا وسهلنا وبساتيننا كبساتين الجليل لا مثيل لها..

كنت طول النهار أركض فى المزرعة، أدور حول الزرع والزهر، أحوم حول الأرواح الطيبة والعقول النيرة والوجوه الجميلة.

مساء كل يوم خميس نذهب جماعات إلى الشاطئ لاصطياد السمك، كنت أحب أكل السمك المشوى مع أبي، ترافقنا ألحان زقزقة عصفورى طائر المحنا، أما أمى فتحبه مقليا، كانت أمى تقسم السمك

إلى ثلاثة أقسام، قسم لها وآخر لى و الثالث لأبى بالفلفل الحار ومرات لجدّى اليعقوبى بعصير الليمون.

أما أندريا فكان يجمع أكياس الحلزون رفقة صديقه أوليفر العاشق لكرة القدم ، حلزون الماء على شاطئ عكّا، كان يقول أنه لذيذ الطعم فهو يتغذى على طحالب البحر ويحب أكله فى شطائر خبز حارة، أما أوليفر فكان يبحث بداخله عن حبيبات اللؤلؤ، لؤلؤ عكّا فى سواحل البحر المتوسط.

كنت أتقزز من أكل هذه الرخويات الصغيرة ويبدأ فى الضحك عليّ، كان يقول أنها جزء من ذكرياته على السواحل البريطانية قبل مغادرتها.

كنت صغيرة آنذاك ولم تكن لى أية علاقة بالألم...

الحنيــن

أيلول وأندريا...

أسماء تطاردنى لتستوطنني، لها من الظلاّل ما يرسم أحلامى ويمسح مرايا حزنى ووجعي، عرفتهما من خلال الملجأ، وقبله كنا صغارا نلعب لعبة الغميضة فى الضيعة ونأكل السمك المشوي، ثم كبُرنا وكبُر وجعنا وتفرقنا بعد التهجير والتقينا هنا فى المخيّم بعين الحلوة.

كانت أيلول تسكن فى الملجأ بعد قصف بيتها، أما أندريا فالتقيته ذات يوم عندها، يزورها من حين لآخر ويساعدها فى تخفيف آلامها بعدما فقدت كل عائلتها فى إحدى الغارات الجوية التى كانت تقصف المنطقة دون هوادة.

اكتشفت أندريا هذا الشاب الوسيم من خلال عيون أيلول، ومن خلال عيونه التى تلاحقها فى حركاتها وهمساتها وابتسامتها وحزنها..

كان يقول لى ونحن فى طريق العودة إلى بيته ذات خريف:

ـ أيلول هى الشابة الوحيدة، القادرة على استعادة توازنى وعلى ملء الفراغ بداخلي، يكفى أنها ترمّم بداخلى كهوفى الموحشة، ويكفى أنها زرعت فى نفسى مساحات للحب وللسلام والأمان....

أوزّع معها عرائي، فتهتزُ قدماى الحافيتان عند شقاوتها، اللحظة الأولى انتشى بطلّتها واللحظة الثانية أستأنس بحكاياها الجميلة أين أشرّع مراكب العودة إلى مرابع الصبا والتوغل فيها بكثير من الانبهار،

مشدوها يخطواتى الأولى المرتبكة التى أخطوها نحوها.

كان شيئا غامضا يعلو محياها، أيلول تمنح الغيوم ابتسامة دافئة فتمطر هادئة على أحلامى المبعثرة وتجمع شتات طفولة مبتورة بداخلي، وتمر على جسدى بوهج ألتحفه كلما أهوى السفر غير ملتحف برداء الخطيئة الأولى على أرضها فتتعثر خطواتى عند بابها، وأقف مترنحا يمينا ويسارا كل ليلة عائدا بخيباتي.

ثم يمازحنى مردّدا:

ـ أندريا أنا وأيلول هى أيلول، وأنتِ يافا صديقتنا التى أثرثر معها.

كنت أستمع إليه بانبهار شديد وهو يتحدث عنها، وفى نفس الوقت لم أستطع أن أذكره بأنه ابن أوليفيا البريطانية وأن أحلامه مجرد أوهام.

أخذنى كلام أندريا إلى صديقتى أيلول وشجرة اللوز ورحلتها مع الوجع.

أذكر، ونحن فى المخيّم، أن صاحبتى كانت سريعة الغضب والبكاء، كانت أيلول تنوح كلما فقدت عزيزا منا، كانت تقول وهى نائحة:

اسمى أيلول، ابنة فدوى القاسم وسالم البكري، أعشق التراب واللون الأخضر، رومانسية وصريحة، قلقة ومهمومة وكثيرة التفكير، باردة وساخنة، وأحيانا الاعتراف بالخطأ لغة أجهلها تماما.

أنا كل الفصول الأربعة، شتائية وباردة وقاسية، ولكن ماطرة بالحب، وترمى بى الرياح كما تشاء إلى أرضى التى هُجِّرت منها كلما

يجتاحنى الحنين وفقد عائلتي، تأتينى محملة برائحة زهر اللّوز الذى كان يزين بيتنا فى عكّا..

أنثر العطر والجمال فى كل مكان، فتزهرُ أرضى رغم جروح الدهر وصمت الخلان، وأنوح حد الجنون كلما يدغدغنى الفقد، فأحن إلى أخى صابر، وخبز أمي، ورائحة غليون أبى وعصفورى طائر المَحَنا الذى كان يرافقنى فى مشوار عمرى المتهالك...

ضحكة أيلول، جرس دافئ، وعلى لسانها عذب الكلام، وفى عينيها صفاء عجيب يسلب الروح، يداها الماهرتان تتقنان الأعمال، خصوصاً تلك التى تتعلق بخيرات الأرض، كزارعة الأزهار وقطف الفاكهة.

كبُرت أيلول، وكبُر أندريا بشعره الذهبى الهفهاف، وشامة على حاجبه الأيسر تزينه، وكبُرتُ أنا يافا صديقتهما بجدائل شعر أسود تحكم ظفيرته أمى بشريط بنى تتخلله خيوط بيضاء، والتنعم بالحرية والعودة إلى الأرض، حلم مازلنا نطارده كعصافير تحترق.

أيلول هى مدرِّستى الأولى فى مدارس اللاجئين، كانت تعلمنا الحب والسلام، وكانت تسرق مساء كل يوم ثلاثاء لحظات للحديث عن النضال والحب والثورة، كانت تخبرنا دائما عن بطولات الثورة الجزائرية التى قرأت عنها وعن أبطالها الشجعان، عن الأماكن التى كانت مسرحا للمعارك الطاحنة والمدن التى خربت، وعن المرأة الجزائرية وجمالها ونضالها وعذاباتها، كل يوم تأتى لنا بحكاية مجاهدة وبكل التفاصيل، بطلة من بطلات ذلك الوطن المفدى لتعزز ايماننا بالقضية الأم.

كانت أيلول أنيقة فى تفاصيل ملابسها، تبذّر العطف فى أرض قاحلة وهى المنهارة، عرفت دروب الوجع وهى صغيرة، اغتصبت براءتها وأحلامها وعطف والديها يوم قُصف بيتها، وبقوامها المشوق تشعل شظايا نار حارقة من حولها، تغرّد البلابل من حولها وهى جسد أوردّته متفحمة، وانكسارات أنثى طلقت روحها الفرح يوم انفجرت فى وجهى متذمرة، فأشعرتنى بالعار والخزي.

كانت أيلول متأهبة فى كل لحظة لافتراس اللحظة الخرساء التى حرمتها من الحياة، لافتراس الهواء والدخان وكل شيء متحرك، وبلهجة مشحونة بالغضب تصرخ فى وجهي:

ـ طفح الكيل، طفح الكيل يا يافا، وهى تقبض على العلم الفلسطينى كمن يقبض على الجمر بحرقة كبيرة ودموع موجعة.

كانت الأنفاس تفوح برائحة الدم، عبقة ببقايا أحلام هاربة استحضرتها من ماض حزين، تتثاءب من الوجع تحت رذاذ المطر وركام الحمم التى غطت بيتها.

ليس من السهل تخيل أو تصور طفولة أيلول، ابتسامتها، براءتها، وهى التى ولجت دهاليز الألم المرعبة مرغمة، وتدخله اليوم بأرجل حافية وتمشى على تراب لطالما مرت عليه بحذاء جميل حينما كانت تلعب لعبة الحصى، لعبة خمس حصيات صغيرة تلعبها البنات الفلسطينيات.

كانت تلعب مع أندريا وأبناء الجيران ومع الزهر والزرع، كانت

تقبلها من حين لآخر امرأة فاتنة وقوية، أوليفيا المرأة البريطانية التى تحب الأطفال كثيرا لحرمانها منهم.

مازالت أوليفيا فاتنة رغم كبر سنّها وشعرها الأبيض، والد أندريا بنيامين رجل فظّ ، بل أكثر فظاظة، لا أحبه، علاقاته طبقية، كانت عيناه الممتلئتان حقدا وغلا تلمع خلف نظاراته الشفافة، ووسط جلبة الأطفال يصرخ فى وجوهنا ساخطا ومتذمرا.

كانت السيدة أوليفيا مسافرة أو هكذا قيل لنا فى الضيعة بعدما اختفت لسنوات، أو بالأحرى بعدما شهدت المنطقة غارات جوية كبيرة استهدفت القرى والبساتين، وعند عودتها جاءت ومعها طفل عمره لا يتجاوز العامين قالت إنه ابن أختها صوفيا..

انتشر الخبر كالنّار فى الهشيم وسط الأهالى بأن عائلة بنيامين لها طفل هو ابن أخت زوجته اسمه أندريا، تربيه كابن لها، يترعرع فى حضنها ثم يرعاها فى كبرها وكشاب يافع يدافع عن وطنه الموعود أثناء دخوله إلى الجيش.

أم أندريا القادمة من لندن قريبة جدا من الفلاحين والبسطاء، لكن جارتها أو صديقتها ايميلى لا يعجبها ما تفعل وكل يوم معها فى مشادات كلامية، كنت لا أفهم قولها ومع ذلك كنت لا أحبها مثل بنيامين.

كنت أحس أن هذه المرأة لا تنتمى إلى عالمها الأوروبي، تعيش حياة منفصلة عن مجتمعها البريطاني، كانت تحب الاختلاط معنا،

والاحتكاك بنا، تغرف من طقوسنا وحياتنا الشعبية ما يشبع فضولها ويروى عطشها بعبق الشرق الساحر، كانت تحب بيض دجاجنا وقَطْع الخشب وإشعال النار ونقل الماء، وتحضير خبز التنور الذى تعشقه وتأكله بنهم شديد مع الغموس، أما أندريا فكان يحب البطاطا المقلية مع البيض اللذيذ.

كانت تحب تعلّم لغتنا العربية وتحبّ ملابسنا المطرزة بالألوان الزاهية ولبس اللباس الفلسطينى المطرز بالأحمر وتفاصيل الأشياء...

النّكبـــة

عام ١٩٤٨ النّكبة، عام الحزن أو المأساة الانسانية للشعب الفلسطيني، تشريد عدد كبير من الشعب خارج دياره.

النّكبة هى السّنة التى طردنا فيها مكرهين من بيوتنا وأراضينا وخسرنا وطنا لكن ليس إلى الأبد، هكذا كانت تقول أيلول كلّما أستشيط عليها غضبا قائلة لها:

ـ أنا يافا ابنة النّكبة بساق مقطوعة وأنتِ أيلول ابنة عكّا المدينة الحزينة وذاك أندريا ابن الوطن المهزوم بداخله، وذاك غسان وتلك غادة ووجوه أخرى ستجمعنى أرواحهم لحظة بلحظة....

ردّت عليَّ أيلول بحسرة:

النّكبة يا يافا حوّلتنا إلى لاجئين ومجانين فى مخيّمات الضيّاع، وعشرات المجازر والفظائع الإجرامية (مذابح خان يونس، دير ياسين، صبرا وشتيلا، بيت لحم، غزة...الخ) واغتصاب أراضى أجدادنا.

هى هدم أكثر من قرية وتدمير أكثر من مدينة وتحويلها إلى مدن يهودية بعد محو كل معالمها، وحرق مزارع وبساتين أبائنا.

النّكبة هى طرد معظم القبائل البدوية وتدمير الهوية ومحو الأسماء الجغرافية العربية وتبديلها بأسماء عبرية ورسم خريطة جديدة على أرض الواقع وعلى أجسادنا.

ـ هل أقول أكثر يا يافا؟

تنظر إليَّ وبنبرة ترتجف تهزّ رأسها وقد كنت فى قمة غضبي، ثم تنحيت جانبا بعدما رمقتها بنظرة خاطفة قائلة:

النّكبة هى الصمت الرهيب على تشرّدنا، النّكبة هى سرقة أحلامك وأحلامى وأحلامنا والسفر بها عبر غارات جوية متتالية، تجتاح المدن النائمة على جراحها والثكلى بمواجعها كل ليلة.

النّكبة هى مساحة الخريطة التى تضيق وتضيق بنا فى المخيّمات فيكون الانتظار والوقت مقيت.

ضاجت روحى وضاقت بيَّ السبل واكتفيت بالتنهد ونحن نفترق كعائلات مجروحة بعدما كنّا نفرح للفرح ونحزن للحزن، يُسْكتنا الحياء عن قول القبيح لبعضنا والخجل عن التلميح والمراوغة وهكذا كنا إلى وقت قريب.

قلت، وقد بان الغضب على وجهي، أننا لم نعد نأكل الطعام معا ولا نشرب الشّاى الذى لا زالت أقداحه فارغة على المائدة كلّما أتأملها مهملة.

كنت أتكلم وحدى وفى أعماق الليل البهيم أتأوه بين اللحظات الهاربة التى تجر وراءها جداول الأحلام الظمآى، أتكئ على روح عشقى لأرض تحترق ونبضات قلبى تتسارع كأمواج البحر بعدما تعبت أجفانى من التحديق فى الظّلام الدامس ولفتنى مسحة برد قارس أخرجتنى من غيبوبتى ووحدتى واشتياقي، وشفتاى ترتعش ارتعاشا وعذرى ساعة وداع لضيعتى ولكلبنا تيو.

لم يبق فى يدى غير كأس من الشّاى الأخضر أرتشف منه رشفات الهجر والوحشة، أناجى الصباحات النّدية والمساءات الباردة كى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنباتي، وقد أحرقت وجدانى وأقلقت مضجعي، واضطرم فؤادى من شدّة الكتمان والوجع والفقد للأحبة.

أشياء كثيرة تغيّرت من حولى وأشياء أخرى تحوم حولي، أطيافها تبحث بداخلى عن بقايا امرأة تحاول أن تلملم شتاتها وتحاول أن تنسى جراحها.

تلازمنى أنغام فيروزية فى وحدتى وحزني، ترافقنى نغماتها التى تحاكى وجداني، رقة صوتها الملائكى يشنف أسماعي، يعذبنى همسها الدافئ، ترافقنى فى ترحالى وتلاحق خرابى من مدينة إلى أخرى، بصوتها تمحو حزنى الثقيل وتحلق بى إلى عطر أمى فدوى ورائحة غليون أبى سالم.

وقفتها تزيدنى وقارا وتضفى على المكان خصوصية التجلي، فأسافر معها على بساط السندباد البحري، البحارة البغدادى الذى تاه عبر الجزر، أو أربط نفسى مثله بساق طائر الرُّخّ، كما تقول حكايات ألف ليلة وليلة، لعله يصلنى بضيعتى فى عكّا.

أنظر إلى شجر اللّوز الذى تحوّلت أزهاره إلى عيون دامعة متوهجة، تسقط على الأرض وكأنها تتخلص من وجعها، أبحث عن حكايا الأميرات الساحرات فى الروابي، التى قال لى عنها أبى أنها تسكن خلف الأسوار والقلعة وخان العمدان، تزين شارع صلاح الدين الأيوبى

كى تعيد إليَّ الطفلة التى تسكننى وتجلس فى حجر أبيها وتظفر لها أمها الجديلة.

كانت كل أنغامها تروق لى ولكن يستوقفنى شادى وحكاية ذاك الصبى الذى أتى من الأحراش للّعب بالثلج ثم انفجر جسده وسط الألغام.

ذاك الطفل الصغير الذى بعثر أحلامى وأوقف لغة الحكى الوجدانى بداخلى وهزمنى غيابه لأنه رحل بريئا، تاركا وراءه ثلوجا ناصعة كبياض سريرته تزور المكان كل فصل من فصول السنة المتعبة، تُذكرنى بأننى كَبُرت أكثر من عشرين سنة وشادى مازال صغيرا، كما قالت فيروز وأنا أردّد وراءها...

"من زمان وأنا صغيرة..
كان فى صبى
يجى من الأحراش
نلعب أنا وياه
كان اسمه شادي"

....
حكايته تشبهني...

فيروز زادت من هم الوطن الجريح بداخلي، جرحه النازف لم يندمل بعد، جرحه الذى شاخ وتفسخ من شدّة الألم، نضال يعشعش فينا عُلقت عليه مشنقة الأجيـال.

- لماذا نعيش مشردين عراة حفاة فى وطننا ؟

- وكيف لنا العيش بلا نضال؟

النضال هو حضن الثورة والحبّ هو التورط فى القضية.

العشق والنضال توأمان، فالعشق هو الألم والحياة بزهوها وطقوسها ونشوتها.

والنضال هو نهاية الحياة وبداية عمر جديد، هو الوأد والآخر والحياة وما بعد الحياة.

هو هكذا أو هكذا خيّل إليَّ واعتقدته.

هو تلك الخيوط النورانية الرفيعة التى نرسمها فى أحلامنا، خاصة حينما يقع المناضل بين جلاديه، تتراءى له هذه الخيوط وما يرفعه إلى النضال هو سمو الحبّ.

كم تكون الحياة قاسية حينما يصفعنا الواقع بمرارة وبداخلنا نحمل شعلة من الحبّ والنضال ولا تفارقنا المحن ونمضى كرجل مبتور أمضى حياته فى الترحال والمنفى، هكذا كان غسان كنفانى ومحمد بودية الجزائري، وحينما أقول محمد بودية أتذكرعملية أيلول الأسود فى أولمبياد ميونيخ وهو الاسم الذى حُفِر فى ذاكرة أبى فأطلقه عليَّ، وليلى خالد خاطفة الطائرات التى اتخذت من اسم الشهيدة شادية أبوغزالة اسمها الثوري، شادية التى كانت تقول لى ما فائدة الشهادة التى أنالها إن لم يكن هناك جدار فى بيتنا أعلقها عليه.

كانت دلال المغربى التى دنوت منها ذات يوم جنائزى فى زحمة البيت

المملوء بالنسوة وهنّ يبكين الشهداء الأربعة الذين ازهقت أرواحهم قناصة الجيش الاسرائيلي، كانت يداها ترتجف وخطاها تتباعد عن الجموع، كان التباعد والقرب خطى تقترب من ظلي، من جسدى ومن خزانة الملابس المبعثرة، لملَمَت منها بعض الأطياف والملامح والألوان، كل ما يشبهها هو جزء منها أو بقايا امرأة مشروخة، ترى فيها وجهها أو ما تبقى من وجهها، عطرها أخذته الريح مأمورة فى غفلة منها إلى إحدى القبور المفتوحة التى تنتظرها دون سابق انذار.

دلال المغربى تعرف كل الوجوه الحزينة والعيون الدامعة والمناديل التى مسحت دمعها وأتعبها الدوران تحت سماء واحدة مظلّلة بالغيوم، ظلُّها لم يعد ظلّها وجسدها مـر مع العابرين تحت شمس واحدة ملهبة، وأرض تتصدع من تحت أقدامها.

تعبر مع العابرين إلى الضفة الأخرى، من المجهول إلى المجهول، تعبر ساحة الجسر وسط ليل بهيم ودموع تغسل جسدها النحيل ماذا تفعل لتمحو عار الهزيمة والانكسار، لتلامس أرض الأجداد، لتحفر شاهدة القبر من جديد وتعدو مع الريح، تحمل عطرها المفقود وتحشو مسدسها فتكون كل الألوان حمراء، وترفض الموت وهى التى كانت منذ سنين تنتظر الفرحة الكبرى أن تزف إلى عريسها وهى تحمل الراية كعربون محبّة.

كانت الساعة تقترب ودقات قلبها تتسارع، نظرت إلى ساعتها بتمعن وكأنها تثبِّت الموعد فى ذاكرتها، كانت فى حالة هدوء وهى التى عَهدتُها

متوترة، قلقة وكثيرة الكلام.

رتبت دلال غرفتها كالعادة وصلت ركعتين.

لا أعرف لماذا كان نظرى مركزا عليها فى هذا اليوم، أتابع حركاتها وسكونها، وهمسها، هدوءها غير طبيعي، يلفت النظر، وأنا التى عايشتها دوما مستفهة ومتذمرة.

قلت، رتبت غرفتها جيدا وطلبت منى تحضير فنجان من القهوة المركزة.

قلت لها:

- لم أتعود منك شرب قهوة ثقيلة؟

لم تجب، كل الذى فعلته أنها نظرت إليَّ بقوة وقالت أيلول، ثم صمتت.

قلت لها:

- ماذا؟

لم تجب؟

مرّت ابتسامة عابرة على شفتيها ثم هزت برأسها.

هى لا تشبه أحدا فى العائلة، هى تشبه نفسها، هى تشبه حلمها وتتذكر الضياع ساعة التهجير.

دلال شابة فى ربيع العمر، فاتنة، شعرها الأسود يتموج وعيناها الكحيلتان تشع منهما ثورة بركان خامد، حادة البصر وقوية البصيرة، لكن فرحها تائه بين اللحظات التى تمرّ بها وسط عائلتها، وحزنها

يلازمها فى صمت مريب!

تتأمل بإحساس من الألم وبعينيها المحدقتين فى الوجوه تتسلل خلسة إلى أغوار أنفسهم، تعزز الثقة فى ذواتهم وترسم الأمل فى عيونهم.

كانت دلال تخطط بذكاء وخطواتها محسوبة، فى يوم ما سألتها من أين لك كل هذه الثقة العالية بالنفس، ردّت وهى تبتسم قائلة:

- من الثورة الجزائرية المجيدة.

قلت متعجبة:

- الثورة الجزائرية !

- ولكنك لا تعرفين عنها شيئا؟

قالت لى بعدما وقفت تنظر إليَّ بكبرياء وشموخ واعتزاز:

- عرفتها من خلال بطولات أجدادى فى كتب التاريخ ومتابعتى لأفلامها السينمائية.

قلت مستفهمة ومتعجبة:

- من أفلامها؟!

ردّت وهى تنظر إلى السماء بشموخ المناضلة التى لا تخشى الجلادين:

- شاهدت الكثير منها مثل دورية نحو الشرق، معركة الجزائر، ريح الأوراس، أولاد نوفمبر، الأفيون والعصا.. و...و...و...

قاطعتها متعجبة :

- أوف...أوف...

قاطعتنى دون أن أكمل استغرابي:

وخاصة الحريق لمحمد ديب ابن مدينة أجدادى تلمسان.

شعب مناضل، لم يكفّ لحظة عن الكفاح ليعيش تحت ظل الشمس المشرقة، ومن ثمّة عززت ثقتى بقضيتى ونضالى من أجل فلسطين الحبيبة، نضال جميلة بوحيرد وحسيبة بن بوعلى وجميلة بوعزة وأخريات.

عذابهن داخل السجون الفرنسية وأجسادهن المصلوبة تحت أسلاك الكهرباء التى كانت تشدّ فى أثدائهن، وفى مناطق أخرى حساسة من أجسادهن ولّدت فى نفسى القوة التى حوّلتنى من امرأة مهزوزة ومكسورة بفعل التهجير إلى امرأة صلبة كجميلة بوحيرد وقوية كمريم بوعتورة وذكية كزبيدة ولد قابلية، وحازمة كفضيلة سعدان.

قالت لي:

ـ وهل تعرفين يا أيلول حكاية كل واحدة منهن وبشاعة التعذيب على أيدى المظلّيين الفرنسيين بالجزائر.

أجبتها وعينى تنظّر فى عينيها باستغراب قائلة:

ـ فقط ما غنّته فيروز عن جميلة بوحيرد والتى تقول:

"جميلة، صديقتى جميلة،

تحية إليكِ حيث أنتِ

فى السجن فى العذاب حيث أنتِ

تحية إليك يا جميلة، من ضيعتى أغنية جميلة..."

- أما عن تعذيبها فالقليل.

- سأخبرك عن تعذيبها إذن:

- ألقى القبض على ابنة القصبة وبيدها حقيبة سوداء فيها وثائق جبهة التحرير، اقتيدت جميلة إلى مصيرها، وهناك بمركز الشرطة تعرضت لشتى أنواع التعذيب من عناصر الفيلق العاشر للمظلّيين بقيادة الجنرال "ماسو".

تصمد جميلة بوحيرد أمام الجلادين التى لم تجهض يدّ التعذيب شعلة الثورة فى قلبها وهى تنبس بشفتيها المكتنزة بالدماء" الجزائر أمنا".

كان ليلها طويلا وحزينا، آهات عليلة تنبعث من جسد مضرج بالدماء، غصص فى الحلق، ترعب الجلاد فى عقره وترمى به فى حفر التيه.

أجمل فتاة "أتعبت الجلاد ولم تتعب"، عصفورة جريحة تصارع الجلاّدين، مصلوبة، تنتفض للمسات التيار الكهربائى وهى تهذى "أمنا الجزائر".

"سجائر تطفئ فى النهدين"، وأغلال تكبل المعصمين، ودم ينزف من خريطة جسدها المحروق، المهشم على كرسى الاستنطاق.

وجه شاحب ذبلت ملامحه تحت وقع الكدمات الموجعة، ثم تغيب جميلة عن الوعى ولمّا تستفيق من متاهة الأحزان تنادى "أمنا الجزائر".

- أتدرى ماذا قالت جميلة الوطن عن تعذيبها؟

قلت:

ـ لا.. لا.. ولكن، ماذا قالت؟

قالت جميلة الجزائر عند تعرضها للتعذيب [1]:

ـ "استجوبنى منذ وصولى إلى المستشفى عدة أشخاص بينهم ثلاثة ضباط وثلاثة مفتشى شرطة وثلاثة مظلّيين يعتمرون قبعات حمراء".

" ثم وضعنى الضباط الثلاثة والمظلّيان عارية وربطونى إلى مقعد بعد أن وضعوا بعناية خرقا رطبة تحت الأغلال عند المعصمين والذراعين، وعلى الصدر والفخذين والكعبين والساقين.

"ووضعوا عندئذ أسلاكا كهربائية فى عضوى التناسلى وفى أذنى وفى فمي، وداخل يديّ وعلى فم النهدين وجبهتي."

صرختُ فى وجهها قائلة:

ـ كفى ..كفى، هذا يكفي..هذا يكفي..

فظيـع... فظيـع..

ثم خفّت حدة صوتها بعد انهيارى أمامها وهى تواصل كلامها لي:

الشابة الجميلة ابنة العشرين يا أيلول عند محاكمتها كانت تردّد بصوت عال قائلة وهى التى حكم عليها بالإعدام:

ـ "الحقيقة هى أننى أحب وطنى وأريد أن أراه حرا، لهذا فأنا أؤيد كفاح جبهة التحرير الوطني".

ولكن لا تنسوا أنكم عندما تقتلوننا تقتلون شرف بلادكم وتقاليدها

١- جورج أرنو وجاك فرجاس، دفاعا عن جميلة بوحيرد.. بطلة العرب فى الجزائر.

التحررية، كما أنكم تدكّون مستقبلها الذى تجعلونه فى خطر. ولا تنسوا أيضا أنكم لن تتمكنوا من منع الجزائر من استعادة حقها فى الحرية إن شاء الله."

تخبرنى دلال باسمة وبكل فخر عنها وهى تقول لي:

ـ وما قاله نزار قبانى رائع فى حق هذه المرأة وكل بطلات الثورة الجزائرية يا أيلول.

ـ قلت لها، وماذا قال؟

قالت :

الاسـم: جميلة بوحيـرد

رقم الزنزانـة: تسعونا

فى السجن الحربيّ بوهران

والعمـر اثنان وعشرونا

عينـان كقنديلى معبـد

والشعر العربيّ الأسود

كالصيـف... كشـلال الأحـزان..

أما عن تعذيبها فاسمعى ماذا كتب:

يا ربى هل تحت الكوكب ؟

يوجد إنسان

يرضى أن يأكل .. أن يشرب

من لحم مجاهدة تصلب...

أضواء (الباستيل) ضئيله
وسعال امرأة مسلوله
أكلت من رئتيها الأغلال
أكل الأنذال..
(لاكوست)، وآلاف الأنذال
من جيش فرنسا المغلوبه
إنتصروا الآن على أنثى..
أنثى كالشمعة مصلوبه
القيد يعض القدمين
وسجائر تطفأ فى النهدين
ودم فى الأنف ..
وفى الشفتين..
وجراح جميلة بوحيرد
هى والتحرير.. على موعد..
مقصلة تنصب.. والأشرار
يلهون بأنثى دون إزار
وجميلة، بين بنادقهم
عصفور فى وسط الأمطار....

هذه هى حكاية جميلة بوحيرد يا أيلول، هكذا يجب أن نكون مخلصين لفلسطين.

ابتسمتُ فى كبرياء وقلت لها:

ـ أعرف قصص بطلات أخريات: مريم بوعتورة وزهور زراري، هذه الأخيرة التى تنهارأمامها فرنسا الأسطورة بشعارها الحرية المساواة الأخوة وهى تحت يدّ التعذيب التى لم ترحم شبابها داخل قسم من أقسام المدرسة التى حوِّلت إلى مركز للتعذيب، تعذيب الشعب الجزائرى وبناته، ومن مدرسة العلم والمعرفة والرقى الفكرى والتحضر الذى تنادى به فرنسا إلى حجرات للتعذيب السادي؟

تنهدت دلال قائلة:

ـ ما أتعسها ثقافة الحرب المدمرة وثقافة الدول المتحضرة؟ يا أيلول.

وهكذا يا دلال كانت تقول الفتاة الجميلة زهور وهى تركز نظرها على الطاولات التى حوّلت إلى أماكن لتمديد الأجساد وهى عارية تحت التعذيب، وحوّلت الكراسى إلى أماكن للاستنطاق ولف الأيادى خلفها، وفوق كرسى الدراسة يضع المظلّى قدمه ويستنطق أسيره.

كانت زهور تركز نظرها على الأسوار المزينة برسومات الأطفال وإلى السبورة السوداء وعلى كل الأثاث الذى لم يعد له معنى وانكسر بداخلها "وإلى ظلاّل" جول فيري"، أسطورة المدرسة الفرنسية؟ إلى أشباح الكلمات، أخوة الانسانية الكتاب والشعراء، فالون، فيكتور هيجو، فيرلان، أبو لينير.. لقد مسحت أشعاركم من السبورة السوداء، وألصق الفهود فوقها مخططا لتنظيم شبكات المقاومة "إن التعذيب يتناغم مع الثقافة، فالتعذيب يمارس فى أقسام الحضارة الفرنسية"؟؟ هكذا

فكرت زهور."[٢] وهكذا كانت تقول.

المناضلة الجزائرية زهور زراري، التى كانت تكتب أشعار الحبّ والسلام والوطن من سجن بو بفرنسا لتزهر يوما ما فى جزائر الحرية التى تحلم بها،

لم تفكر فى ذاتها، كانت تحلم بذات الوطن مثلى أنا اليوم فى فلسطين، كانت تكتب أشعارا للوطن، كانت تقول:

من بعيد.....
صافرة قطار...
نداء يمزق هدوء الليل
يصفر...يصفر
ينادى للحرية
للسفر ...للفضاءات الواسعة
من أين جاء؟
يحمل معه رجالا ونساء
لا مبالين .. قلقين.. مشمئزين
متلهفين، يحدوهم الأمل
للبعض.. هى حياة جديدة
للآخرين...
مجرد أقواس

٢- الفلاقة، الرائد عزالدين، ٢٠١١م

الوقت ليـل...
القطار يصفّـر
ينادى للحرية
للسفر.. للفضاءات الواسعة
أحلامى المجنونة
تصطدم بالقضبان
تنزف ثم تسقط...
تلهث داخل زنزانة
فالقطار قد صار بعيـدا .

كنت أستمع إليها مذهولة ومصدومة، ولم أعد أخاف من التهجير ومن السجن والتعذيب مادام الوطن يسكننى فى كل مكان مثل ما سكن قلب جميلة وزهور ودلال وشادية، مادام فى القلب نبض للوطن.

كانت دلال المغربى تتابع كل الوقائع التى كانت لها صلة بالعمليات الفدائية أو تلك التى كان يقوم بها المحتل فى قطاع غزة.

أبشع المجازر والجرائم كانت ترتكب بوحشية ولا تعترف بحق المواطنين العزل والأطفال والنساء، ويدّ الاعتقال طالت كل كبير وصغير.

كانت دلال المغربى تقول لي:

ـ لا يختلف الاستيطان الصهيونى لفلسطين عن الاستدمار الفرنسى للجزائر، الكل كان ضد الإنسان والحرية، كان الوجود واحدا والعمليات القمعية واحدة وإن اختلف روادها، فالسياسة المتبعة تتطور وتنسج

خيوطها بأشكال جديدة.

أذكر البيوت التى هدّمت وأزيحت عن آخرها وشرد أهلها وانتزعت أراضيهم بالقوة وحوِّلت ملكيتها إلى المستوطنين الجدد وبنيت مشاريع سكنية جديدة على أنقاضها.

بيت عمى هدّم، مزرعته أحرقت محاصيلها لتجويعنا، جيراننا الذين هجّروا بالقوة ومازالوا يحملون بأيديهم مفتاح العودة و..و..

ردّت بغل كبيـر:

ـ كيف يمكننى أن أنسى كُلّ هذا الخراب بداخلى يا أيلول؟

الحُبُّ والنضال

سألتنى يوما ما صديقتى الصحفية ماجدولين فى المخيّم:

ـ هل الحُبّ عدو النضال يا أيلول؟

صمّت برهة وأنا أحدق فيها كمن تقول لها ولماذا هذا السؤال الآن يا ماجدولين، فأنت تضغطين على جراحى المتفسخة منذ طفولتي؟

ابتسمت فى وجهى وكأنها تستفزنى بسؤالها وهى تعيده مرة ثانية وصداه لا يزال يرنّ فى أذني؟

لحظتها لم أجب بشيء!

ثم اغرورقت عيناى بالدموع وصمّت، ولكن توقفت ذاكرتى على عتبة التاريخ أشرّع أبوابه لعله يذكرنى بلوعة حب أو بطولة مقدام، ومرت أمامى أسماء كثيرة لها من الحبّ والنضال الكثير ومن المعارك الفاشلة والخالدة والمؤلمة الكثير، الكثير.

ثم رفعت رأسى نحوها قائلة:

ـ سأخبرك يا ماجدولين عن حب خالد اختار النضال، واختار النضال الحبّ بطريقة لا يمكن تصورها.

فاليوم التاريخ الذى درسته يستوقفنى عند مناضلة جزائرية أحببتها كثيرا لأنها أحبت الوطن مثلى بطريقتها وهى فى عمر الزهور وناضلت من أجله ووهبت روحها فداء له، إنها لبوءة الجبال مريم بوعتورة الجزائرية، ياسمين الاسم الثوري.

توقِفنى بطولتها شاهدة على فدائية فلسطينية أخرى من أصول تلمسانية جزائرية تشبهها وهى من مواليد مخيّم اللاجئين صبرا، دلال المغربى التى شاركت فى عملية عسكرية فى ١٤ مارس ١٩٧٨ مع مجموعة دير ياسين، حيث قامت بأسر ركاب حافلة كانت متوجهة من حيفا إلى تل أبيب.

أما مريم بوعتورة سقت بدمائها الطاهرة شجرة الحرية، آمنت بالثورة وبساحات الوغى، وهبت بعمرها عمرا جديدا للوطن، ونبتت على قممه ابنـة نقـاوس.

شابة فى مقتبل العمر نبتت على شموخ قمم الأوراس نبتة "الياسمين" فعطر أريجها سفوحه العالية، وترصعت جباله بجمالها ودماثة خلقها وحكمتها.

مريم بوعتورة ابنة الأوراس (الجزائري) الأشم الذى تغنى به الشعراء ومات بين وهاده الأبطال وحفرت على قممه أسماء العذارى والبراءة مخلدين الوطن والذاكـرة.

اختارت ذاكرتى التاريخية كقصة عشق نسجت خيوطهما فتاتان وبطلتان جزائريتان، مريم بوعتورة من منطقة نقاوس والفلسطينية دلال المغربى من أصول تلمسانية تحفظ لهما الذاكرة الكبرياء والشموخ على مر الأزمنة، وتشهد الذكرى بطولات الرجال والنساء والعلماء والمصلحين ما يرفع ذكرهما.

ابتسمتُ لحظتها فرحا بدلال المغربي، كما تبتسم لحظة القدر فى

فصل شتاء بارد بصرخة طفلة بهية الطلعة، جميلة، صبيحة السابع عشر من شهر جانفى عام ١٩٣٨، الفصل شتاء والقلوب الدافئة تفيض حرارة، تتطلع إلى أسمى آيات الله فى خلقه (مريم).

تنشأ الطفلة المدللّة فى أحضان أسرة طيبة، ميسورة الحال، وإخوة ستة يتسابقون لنيل حب الوالدين عبد القادر ويمينة.

كَبُرت الفتاة المدللّة وكبرت بداخلها معاناة وآلام شعبها، وهى تعايش يوميا سياط التعذيب ومرارة الدموع والقتل والتشريد والتجويع وحرق المنازل.

كَبُر وتجذّر بداخلها حقد كبير على الكولون الذين استولوا على خيرات الأراضى الخصبة والبساتين الغناء والمزارع الواسعة (زكاري، قيو، مارتيني، مارينو، روسي، بورال...).

ترتشف ماجدولين قهوتها وهى تصغى بكل جوارحها وتومئ برأسها على مواصلة الحكاية، كلما حاولت التوقف أو التذكر دون أن تنبس بكلمة.

قلت لها:

فى يوم من الأيام هجرت العائلة مدينة نقاوس إلى مدينة سطيف، وهى مدينة جزائرية أخرى تذكرنى بمظاهرات الثامن ماى ١٩٤٥ ومجازره البشعة، حيث توسع نشاط والدها إلى تجارة الألبسة الفاخرة، كانت مريم تسمع كثيرا من والدها عن بطولات سكان الأوراس الأشم عبر العصور ومختلف الإمبراطوريات التى تعاقبت عليه.

تصغى إلى كل ذلك المجد العريق الذى صنعه الأجداد، فتتقد بداخلها جمرة اللهب ضد الاستعمار الفرنسى يوما بعد يوم والذى اغتصب وطنها، كما تتقد بداخلى شعلة الأمل.

أصبحت مريم شابة يافعة، جميلة، فتاة راقية، متحضّرة، تلبس أجمل الثياب الأنيقة على أحدث الموضات، وتنتعل أحذية جميلة بألوان قوس قزح.

التحقت مريم بثانوية أوجان ألبارتينى بسطيف وأنهت دراستها بتفوق وهى الشغوفة بالعلم والمعرفة.

كانت فتاةً حنونةً، تساعد زميلاتها بالألبسة والأحذية وتشفق لحالهن، رفضت الشابة الجميلة عروض الزواج رغم إلحاح والدتها، كانت تقول:

ـ أنا لن أتزوج، سألتحق بالثورة وأدافع عن وطني، وهكذا كانت تقول دلال المغربي:

ـ أنا تزوجت الوطن.

ابنة السادسة عشر ياسمين لم تقف مكتوفة الأيدي، وبإضراب الطلبة راحت تشحذ الهمم وتحث الطلبة الجزائريين على العصيان والتمرد لمواجهة العدو الفرنسي.

لم تتأثر مريم بالثقافة الفرنسية ولم تترك مشاعرها تعزف أوتارها على سيمفونيات رميو وجوليات أو أغانى العشق الفرنسى أو أثر فيها اسم الممثلة الايطالية كلوديا كاردينال كما كانوا يلقبونها به زملاؤها

والتقرب منها عاطفيا، أو تعطرت بشذى العطر الباريسى الذى تتباهى به جميلات الموضة!

غادرت مقاعد الدراسة بسطيف تلبية لنداء الطلبة الجزائريين واضراب ١٩ ماى ١٩٥٦، لتقوم بمهمة التمريض بجبال الشمال القسنطينى الولاية الثانية.

استطاعت تشكيل الخلية الأساسية الأولى للطالبات (حورية مصطفاي، مليكة خرشي، وفطيمة بن سمرة..) وبدعم من أختها ليلى تزودهن بالجرائد والمناشير والسماع لصوت العرب.

هنا قاطعتنى ماجدولين مستفسرة:

ـ ومن هو صوت العرب يا أيلول؟

قلت لها:

ـ هى إذاعة مصرية كانت تبث برامجها أثناء عهد عبد الناصر لمناهضة الاستعمار الأجنبى للبلدان العربية كفلسطين والجزائر آنذاك.

هذا عن صوت العرب يا ماجدولين، أما مريم فقد توسع حلمها النضالى كما توسعت خليتها الفدائية ـ كما قالت لى دلال المغربى وعيناها تشع منهما عظمة الوطن ويتدفق منهما حماسا لا يقاوم، توقفت عن الدراسة وهى ابنة عائلة مترفة فلم تسلم من تساؤلات البوليس الفرنسى عن سبب توقفها عن الدراسة:

ـ لا أريد أن أدرس، أنا حرة، أعمل ما أريد، لستم أوصياء عليّ، لديّ والدي...

حاولت مريم الالتحاق بالجبل وبالثوار وباءت كل محاولاتها بالفشل، ومن ثمة حاولت تكييف نفسها على حياة الجبل الصعبة، فتُعوِّد نفسها النوم على الأرض والتخلى عن الحياة الكريمة والسهلة التى كانت تنعم بها.

وفى إحدى الأيام بلغها اتصال من الجبهة ـ أقصد جبهة التحرير الوطنى ، وبتوجيه من طبيب الأسنان الطاهر بوسديرة من منطقة جيجل الذى كانت تتردد عليه وتتدرب عنده، فكان الاتصال بها عن طريق الممرضة سعدية آيت سعيد، زوجة الكولونال أوعمران، التى كانت تعمل بمستشفى سطيف والتى التحقت هى الأخرى بالثورة وبالولاية الأولى.

كانت أولى خطواتها نحو الجبل تتسم بالسعادة والفرح، كما كانت أولى خطوات دلال المغربى وهى تلتحق بالحركة الفدائية الفتحاوية للثورة الفلسطينية.

لقد أحست مريم بوعتورة أنها تخدم وطنها بحب كبير، تلبس البدلة العسكرية وتعين بالولاية التاريخية الثانية الشمال القسنطينى فى ديسمبر ١٩٥٦ تحت اشراف مجموعة من الثوار الأحرار، منهم لخضر بن طوبال، على كافي، علاوة بن بعطوش، صالح بوبنيدر (صوت العرب)، عبد المجيد كحل الرأس، ولمين خان.

تميزت ياسمين، وهو الاسم الثورى الذى أطلق عليها، بالكفاءة العالية، الحكمة، الدهاء، دماثة الأخلاق، التضحية.

تزداد الثورة الجزائرية ضد الفرنسيين اشتعالا وتتزايد وحشية الاستعمار لتحصد الأبرياء، ويتواصل الإصرار والتحدي، وعبر مناطق وجبال الولاية الثانية التى تشهد لها الشجاعة والإقدام والمخاطرة بنفسها لإجلاء المصابين وإنقاذ المجاهدين والتكفل بهم، لم يساورها الشك بالفشل أو يدغدغ شعورها الحنين إلى الأهل والحياة المترفة.

كانت تتحسس مسدسها من نوع ٩, ٠ ملم ورشاشها من نوع مات ٤٩ بكثير من الفخر والاعتزاز بالوطن والوحيدة بين رفيقاتها التى تحمل السلاح لشجاعتها فى القتال، ودخلت دلال المغربى عدة دورات عسكرية وتدربت على جميع أنواع الأسلحة وحرب العصابات وعرفت بجرأتها وحماسها الثورى والوطني.

مريم الفتاة اليافعة وهى فى عمر الزهور تسكن الجبال تحت وطأة البرد والأمطار والثلوج الكثيفة والجوع لأيام معدودات إلاّ من حبات البلوط التى تتكرم بها الطبيعة، وهى فى مواجهة الموت لحظة بعد لحظة.

ساهمت "ياسمين" فى تكوين الممرضين ومساعدين اجتماعيين وممرضات ومرشدات كانت الثورة فى أمس الحاجة لهم، كانت تحت إشراف الدكتور لامين خان والبروفيسور محمد التومى الذى التحق بالولاية الثانية سنة ١٩٥٧ حيث لعبا دورا انسانيا ونضاليا كبيرا.

لقد مر النظام الصحى بعدة مراحل تاريخية، منها انشاء المستشفيات، خاصة المستشفيات المتنقلة عبر الجبال وتحت الأرض

الحارقة بسبب شدّ الخناق الذى فرضه الجيش الفرنسى على المجاهدين، إذ ساهمت فى انجاز وتهيئة مستشفى "مورجو" بالقل والذى كانت صناعته من الخشب، حيث استقطب العديد من المرضى والجرحى، وباكتشافه من طرف القوات الفرنسية التى انبهرت بطريقة انشائه، دمرته عن آخره بعدما تم تصويره.

ياسمين الشابة الجميلة تقطع المسافات البعيدة والمسالك الوعرة وهى تنتعل حذاء من نوع (البوتوغاز) أياما وليال لا ترتاح فيها قدماها ولا تكل أو تمل تحت القصف والنيران الملتهبة، متحدية المعارك الساخنة والبحث عن الضحايا وإسعاف المجروحين.

كانت تقوم بالعمليات الجراحية حسب الحالات ومعالجة الكسور وإخراج الرصاص والشظايا وخياطة الجروح بكل صبر وقوة.

فى رسالة بعثت بها إلى خالها الدراجى (طبيب جيش التحرير) الذى رفض صعودها إلى الجبل لصعوبة الحياة عليها، كانت تقـول له يا عزيزتى ماجدولين:

- فى الجبل صاروا ينادوننى عبد القادر باسم أبي.. صرت طبيبة أحسن منك، أمارس مهنة الطب بتفوق عال، أجرى العمليات وأنزع الرصاص....

كانت ياسمين ترفع من معنويات المصابين وتعزز ثقتهم وتوفر لهم الراحة وتؤمن لهم المخبأ، بالإضافة إلى تقديم المساعدات المادية التى كانت توفرها لأفراد الشعب أو المصابين والتى كانت تأتيها من والديها بسطيف.

هنا ابتسمت ماجدولين وقد فهمتُ ما كانت تعنى ابتسامتها وقلت لها:

ـ سطيف وقسنطينة مدن جزائرية ارتكب فيها المستعمر الفرنسى أكبر المجازرالانسانية.

هزّت رأسها وواصلتُ حديثى عن مريم بوعتورة، قلت:

نضجها وبرودة أعصابها وجرأتها وتصوفها وشدّة بأسها وتحليها بروح المسؤولية واحترامها لمسؤوليها، كل ذلك ساعدها فى التفانى فى عملها ومواجهة عمليات التمشيط والقصف والغارات التى كان يشنها الجيش الفرنسى بقوة، والانتقال عبر مراكز جيش التحرير المنتشرة فى الجبال الوعرة.

لقد تبوأت ياسمين العديد من المسؤوليات بمختلف المستشفيات، آخرها كان مستشفى جراح الذى يقع بناحية القل بالمنطقة الثالثة، والذى بقيت به طويلا إلى غاية التحاقها بالعمل المسلح بقسنطينة وهى رائدة فى الطب العسكرى رفقة كل من صديقاتها: زيزة مسيكة، يمينة شراد، حورية بلهولة، فطيمة طرودي، حورية مصطفاي.

وسط جحيم المعارك الضارية اقتحمت ياسمين ـ كما فعلت ذلك دلال المغربى رفقة أخواتها المناضلات ساحات المعارك وشاركت فى القتال وهى تعايش شعبها أبشع الصور لأجساد منكل بها وجثث مترامية هنا وهناك أو مفحمة أو ممزقة الأطراف نالت منها وحشية المستعمر الفرنسى والإسرائيلى بعد نكبة ١٩٤٨..

تكبر محنة الشعب الجزائر وهو يواجه أعتى القوى الاستعمارية التى سلطت عليه أبشع الوسائل المادية والمعنوية من أجل اخماد لهيب الثورة الجزائرية المجيدة. وتكبر معه أحلام الفتاة الجميلة بغد مشرق لتغيِّر مسار نضالها من التمريض إلى العمل الفدائى فى مدينة قسنطينة.

شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩ شاء القدر أن يكون دربها محفوفا بالمخاطر ويقترب من نهايته ويكبح جماح الفتاة الشجاعة الثائرة، فتفضل الإلتحاق بصفوف الفدائيين عن طريق رفيقة الثورة فاطمة الزهراء بوجريو، حيث طلبت منها ايصالها إلى زوجها، قائد المنطقة مسعود بوجريو المدعو مسعود القسنطيني، والذى أوصلها إلى المنطقة الخامسة بقسنطينة.

افترق عنها الأحبة، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من وجه إلى وجهة أخرى، فرحلت عنها رفيقة دربها المجاهدة زيزة مسيكة التى استشهدت فى ميدان الشرف إثر قصف جوى للمستشفى بمنطقة ميلة بتاريخ ٢٩, ٠٨, ١٩٥٩ وكلفت مريم بوعتورة (ياسمين) بالالتحاق بتونس من طرف مسؤولى الولاية الثانية، خاصة على كافى، لاحتياج الجزائر لها فى مرحلة البناء.

لكنها رفضت الذهاب إلى تونس مفضلة البقاء فى وطنها لمواصلة الكفاح والاستشهاد.

ـ أتعرفين ماذا قالت هذه الجميلة يا ماجدولين؟

لقد قالت:

ـ أفضل أن استشهد بين إخوانى المجاهدين ووسط أبناء شعبى فى الجزائر الذين أحببتهم وأحبونى وهكذا كانت تقول الفدائية دلاّل المغربي.

تدخل الشابة المتمرسة عوالم المدينة التى تعرف أزقتها ومبانيها.. قسنطينة، أو سيرتا عاصمة الملك صفاقص وماسينيسا، مدينة الثراء والنعمة، تزلزل عرش فرنسا فيها وتضرب أروع البطولات بها.

شهر نوفمبر ١٩٥٩ تلقى بنفسها فى قلب المعارك الطاحنة رفقة كومندوس خاص وكلها جرأة وتضحية وشعور بالحرية، أصيبت الشابة الجميلة بجراح بليغة فى منطقة ابن زياد بالقرب من قسنطينة، فتم اسعافها من طرف أم عجوز مكثت عندها شهرا ولم يتفطن لها المستعمر الفرنسى حتى تماثلت للشفاء.

أسندت للبطلة مريم بوعتورة (ياسمين) مسؤولية ناحية وقلدت رتبة ملازم أول فكللت عملياتها الفدائية نجاحا أقلق الفرنسيين وزرعت الرعب فى نفوسهم، والتهبت شوارع قسنطينة تحت النار والدخان رفقة البطل حملاوى ومجموعتهم، تصوب الضربات الموجعة لأفراد الشرطة أمام الثكنات والمراكز المنتشرة (سينما الكازينو) شوارع كيرمان، نهج فرنسا ولابراش، سيدى مبروك، حانة لينا بارك، وعلى الأروقة التجارية لمدينة قسنطينة الكائن بمنطقة بيلار.... والعديد من الاشتباكات، بالإضافة إلى جمع الأموال والأدوية .

كانت جرأتها لا توصف، جسورة وشرسة، تخوض حرب الشوارع،

تنزل كالأبطال وسط الساحات من سيارة نوع طراكسيون سوداء اللون تعوّدت ركوبها مع الرفيق سليمان داودي، المدعو حملاوي، لتزرع الرعب والفزع والموت بين الجنود الفرنسيين وعملائهم.

تقاطعنى ماجدولين وهى منبهرة بهذه المعلومات التى أمتلكها:

- يا لشجاعتها، ولكن ماذا عن الفدائية دلال المغربى يا أيلول؟

تنهدت بعمق الجراح التى لم تندمل وقلت:

- آه يا عزيزتى فالمخيّمات الفلسطينية هى الأخرى شهدت أبشع المجازر والمذابح الدموية الرهيبة التى أثخنت الجرح الفلسطيني، فشاركت دلال المغربى بإحدى العمليات التى أشرف عليها أبو جهاد بخطته، وكانت رئيسة الفرقة الفدائية دير ياسين وتسمى العملية بعملية كمال عدوان لمهاجمة الكنيست فى تل أبيب.

كانت من مهام الفدائية مريم بوعتورة إلى جانب البطلة فضيلة سعدان ومليكة حمروش إعادة هيكلة التنظيم الفدائى وتثبيت المسؤولين وإعادة الاتصال والتنسيق، فقد استطاعت تكوين مجموعات وأفواج من الفدائيين وازداد النشاط المكثف للعمليات ما أدى إلى تسخير الأجهزة الاستخباراتية الفرنسية وتكثيف البحث عنها.

كانت آخر العمليات تلك التى قامت بها البطلة الجزائرية رفقة المجموعة للقضاء على أحد عملاء الاستعمار الفرنسى يشتغل ببيع التذاكر لدى (باراد) بمحطة الترامواى بباب الواد بقسنطينة.

ووفقا للخطة المرسومة التحفت مريم بملاءة سوداء تحمل تحتها

رشاشا من نوع مات ٤٩ ومسدسا عيار ٩, ٠ ملم من نوع ماك ٥٠ وركبت معه السيارة باتجاه سيدى مبروك لجلب أمتعتها، وعند وصولها إلى ساحة سباق الخيل حيث كان رفاقها الثلاثة فى انتظارها (حملاوي، بشير بورغود، محمد كشود) أشهرت مسدسها فى ظهره خفية وأرغمته على الدخول.

نزل الثلاثة من سيارتهم وركبوا رفقتها باتجاه واد الحد بالقرب من غابة القماص يرافقهم الفدائيان فى سيارة أخرى، وعند وصولهم تم تقييده وتنفيذ حكم الإعدام فيه.

نجا العميل بأعجوبة رغم الرصاصتين المصوبتين فى رأسه كان قد وجههما له أحد الفدائيين بمسدس مريم، وذلك بطلب منه قصد تمكينه من اللحاق بالجبل.

نقل العميل إلى المستشفى بواسطة طائرة الهليكوبتر الفرنسية بعد مغادرة المجموعة ظنا منها أنه تم القضاء عليه، وكان موعد اللقاء بمقهى ((ريش)) بقسنطينة لأخذ الاحتياطات اللازمة.

نجاة الخائن وبلغ القوات الفرنسية ودلّها على مخبأ الفوج الكائن بسيدى مبروك حيث يختفى حملاوى ومريم بوعتورة ومحمد كشود وبشير بورغود .

لجأت المجموعة إلى شقة بالطابق الأول من بناية بشارع كيرمان عند صالح توات بالقرب من دكان الكتكت الأزرق للمرطبات، وبالضبط فوق محل للتجهيزات المنزلية يمارس فيه هذا الأخير نشاطه التجاري.

وفى صباح يوم ١١ مارس ١٩٧٨ نزلت دلال المغربى وكلها جرأة وإقدام مع فرقتها الفدائية التى ركبت سفينة نقل تجارية تقرر أن توصلهم إلى مركز يبعد اثنى عشر ميلا عن الشاطئ الفلسطيني، ثم تمتطى المجموعة زوارق مطاطية تصل بهم إلى شاطئ مدينة يافا القريبة من تل أبيب لتنفيذ العملية.

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد كانت رياح البحر قوية وهائجة، وبقى الزورقان المطاطيان ليلة كاملة فى عرض البحر تتقاذفهما أمواج البحر العاتية وتلوّحهما رياح قوية حتى بانت تباشير الصباح الباردة وتلمع أضواء تل أبيب من بعيد تقترب وتقترب.

وصلت الفرقة الفدائية إلى الشاطئ ونجحت عملية الإنزال ولم يكتشفها الإسرائيليون، وواصلت دلال وفرقتها فى الوصول إلى الشارع العام المتجه نحو تل أبيب، ثم تجاوزت مع مجموعتها الشاطئ إلى الطريق العام قرب مستعمرة (معجان ميخائيل) حيث تمكنت دلال المغربى ومجموعتها من إيقاف حافلة كبيرة بلغ عدد ركابها ثلاثين راكبا وأجبروا سائقها على التوجه نحو تل أبيب.

أثناء سيرهم تمكنت فرقة دير ياسين الفدائية من السيطرة على حافلة ثانية وإرغام ركابها على الصعود إلى الحافلة الأولى واحتجاز الجميع كرهائن وعددهم ثمانية وستون رهينة.

وكانت البناية التى لجأت إليها الفدائية مريم بوعتورة مكشوفة وسط حركة دائمة وقريبة من شارع كاهورو (داودى سليمان حاليا)

وشارع كولبير، تنتشر فيها قوات العدو باستمرار، والتعرف عليها كان بكل سهولة، وخاصة بعد القبض على الفدائيين الذين رافقا المجموعة أثناء العملية للمبيت بالمكان بعد مخالفتهما التعليمات والتوجه نحو الجبل، واعترافهما أثناء التعذيب الوحشى الذى تعرضوا له.

طوقت المجموعة ليلة كاملة، جهز فيها العدو الفرنسى قوات عسكرية كبيرة، الساعة تشير إلى الرابعة صباحا يوم ٠٩ جوان ١٩٦٠، أفرغت العمارات المجاورة من ساكنيها، حاولت المجموعة التسلل خارج البناية لكن كل محاولاتهم باءت بالفشل.

فصلت مريم فى الأمر وأنه لا يمكن الاستسلام، قامت بحرق الوثائق والمستندات التى بحوزة الفوج، صوبت هى والبطل حملاوى الرشاش من نوع مات ٢٤ نحو العساكر، تبادل للطلقات أسفر عن قتل رقيب أول يدعى دانيس من طرف حملاوي، أما مريم فقضت على ضابط آخر برتبة ملازم أول يدعى روسو كان قد شارك فى القضاء على مجموعة عبد المجيد كغوش، عبد الوهاب بن يمينة ومليكة حمروش.

أما الوجوه التى احتجزتها الفدائية دلال المغربى فقد كانت مذهولة ومرتبكة وحائرة ومستفهمة، فقامت باخراج العلم الفلسطينى من حقيبتها وقبّلته بحب وكبرياء وعلقّته فى الحافلة وهى تقول لهم بصوت لا يهاب الخوف أو الموت:

- "نحن لا نريد قتلكم نحن نحتجزكم فقط كرهائن لنخلص إخواننا المعتقلين.."

- هل تفهمون لغتى أم أنكم غرباء عن اللغة والوطن.."

- "...لتعلموا جميعا أن أرض فلسطين عربية وستظل كذلك مهما علت أصواتكم وبنيانكم على أرضها..."

اكتشفت القوات الاسرائلية ما جرى بعدما تجاوزت الفرقة الحاجز الأول من الجنود وقتلهم جميعا وكذلك تجاوزت الثانى والثالث حتى شارفت على تل أبيب.

عززت القوات العسكرية الإسرائلية ترسانتها وكلابها البوليسية المدربة لمواجهة العملية الفدائية التى خاضتها البطلة الفدائية دلال المغربي، وأصدر رئيسهم إيهود باراك تعليماته بإيقاف الحافلة بأى ثمن، وتمت المواجهة بعد اطلاق وابل من الرصاص المتبادل والقذائف.

فسقطت الفدائية دلال المغربى شهيدة رفقة أحد عشرة من الفدائيين وبقى اثنان، أحدهم استطاع الفرار والثانى وقع أسيرا متأثرا بجروحه البليغة.

انهالت عليه الضربات الموجعة والصرخات القوية تسأله عن قائدهم، فأشار بيده المضرجة بالدماء إلى الفتاة الجميلة.

لم يصدق إيهود براك ما سمع وما رأت عيناه فأعاد سؤاله مهددا، فردّ الأسير الجريح بقوة تشوبها نبرة الألم والحزن:

- إنها دلال.. دلال المغربي.

أقبل عليها باراك يشدّها من شعرها الطويل ويركلها بقوة، وهو يصب جّام غضبه على جثتها الطاهرة، ويفرغ رصاصات مسدسه فى

جثتها غلا، ويسحبها من شعرها الأسود أمام عدسات الكاميرا، ونسى للحظة يا صديقتى ماجدولين أن روحها تباركها السماء، تبتسم دلال ساخرة منه وعيناها تنظران فى عزة وشموخ وكأنها توصى رفاقها، أن يرفعوا السلاح ويدافعوا عن الأرض والوطن، كما فعلت حسيبة الجزائرية التى رفضت الاستسلام لجلادها ماسو وفجر البناية بحى القصبة العتيق عليها رفقة الأبطال على لابوانت وعمر الصغير ومحمود بوحميدي.

أما عن الفدائية مريم بوعتورة فقد تم اقتحام المنزل الذى لجأت إليه تحت وابل من الرصاص، والقنابل الغازية، والطلقات المدفعية، فأصيبت مريم بشظايا القصف وفقدت إحدى أطرافها السفلية من الجهة العلوية وأصيبت بنزيف دموى خطير، وقبل أن يسارع إليها رفيقها بشير بورغود وهى تنادى على رفيقها محمد كشود والدم ينزف منها بقـوة قائلة:

ـ .. أخى مـراد.. أخى مـراد..

طالبة منه ومن حملاوى استئناف القتال بعدما حملاها وهى فى حالة سيئة للغاية ووضعاها على إحدى أدراج السلم المؤدى للمخزن فى الأسفل، وهناك قالت لحملاوي:

ـ اقتلني.. اقتلني..

فقال لها:

ـ وهل تملكين الشجاعة الكافية؟

قالت له:

- نعم..

فقال له محمد كشود:

- ....ماذا بك يا حملاوي... ماذا ستفعل؟

فقال له :

- .... هى التى طلبت منى أن أكمل عليها وأقتلها.

فقال له:

- لا تقلق نفسك، هم يعلمون أننا هنا، وسيهدمون علينا مدينة قسنطينة إن تطلب الأمر ذلك.

فردّت عليهم مريم:

- لا تدعنى عرضة لشماتة الأعداء؟

- فسكت وسكت حملاوي...

تم القبض على المجموعة فى حالة خطرة، واقتيدت إلى قسم المخابرات والتعذيب فى المكتب الثاني، النقيب رودى ....وهناك توفى البطل حملاوى متأثرا بإصاباته البليغة، وتردد أنه قتل خنقا على أيدى خائنين حتى لفظ أنفاسه لما انهال عليهما سبا وشتما.

أما ابنة نقاوس التى وهبت بعمرها عمرا جديدا للوطن فقد تم حقنها بحقنة مسمومة بعدما يئس سفاح بمركز التعذيب بحى أمزيان وعناصره من افتكاك أية معلومات منها تحت أبشع وسائل الاستنطاق والتعذيب.

تحوم الشهادة على وجوه باسمة، ترفرف روحهما مزهوة، قابضة على روح الألم بقوة، تذرف دماء الحرية بغزارة، لم تضيّع شارع الحبّ خلفها ولا رعشات الكبرياء جسور قسنطينة من الاهتزاز، تحوّلها شهادتها إلى قصائد من الحرية والعزة والكرامة لتبدأ رحلة الكلام ترسم وطنا من لوعة، ووطنا من ماء، ووطنا من صخر عتيد.

لفظت الشهيدة أنفاسها الطاهرة، وهى فى عمر الزهور، اثنان وعشرون ربيعا، مُعطِرة قمم الأوراس الأشم.

وأخرى شيَّعتها العيون باكية وشيّعها الوطن مبتسما، فى عرسها المأتم زغردت البلابل ورفرف العلم عاليا وصدح النشيد الفلسطينى مدويا، زرعت بروحها بذرة التضحية وهى التى أقلقت خفافيش الليل.

امرأة هادئة تحترف الصمت، تخفى ذاكرة تاريخ طويل ومليء بالبطولات.

كانت دلال المغربى تحب الشهادة، أن ترفرف روحها فى السماء طليقة، حرة، ترى أرضها من فوق سبع سماوات وهى ابنة العشرين ربيعا كعروس مخضبة بحناء فرحها.

قال أحد الجنرالات عن مريم بوعتورة ممن شاركوا فى العملية لوالدها:

....لقد أذاقتنا المر، قاتلتنا بشراسة كالأسد، ولو كانت ابنتى لأقمت لها تمثالا...!

ورفض قائد القوات الفرنسية تسليم جثّتها قائلا:

...لقد قتلوا أحسن ضباطي، فلن يرى أحد جثّتها أو يعرف قبرها..!

وقال نزار قبانى عن دلال المغربي:

- "إن دلال أقامت الجمهورية الفلسطينية ورفعت العلم الفلسطيني، ليس المهم كم عمر هذه الجمهورية، المهم أن العلم الفلسطينى ارتفع فى عمق الأرض المحتلة، على طريق طوله ٩٥ كم فى الخط الرئيسى فى فلسطين.."

وهكذا لم تسلم جثّتها وبقى قبر الشهيدة البطلة مريم بوعتورة المدعوة ياسمين مجهولا إلى يومنا هذا، وهى القائلة:

- لو قدر لى يوما أن أقع بين أيدى الجنود الفرنسيين فإنى سأحرمهم من متعة القبض عليّ حيّة، وسأستشهد قبل أن تمسنى أيديهم القذرة.

ولم يسلم إيهود براك جثّة دلال المغربى ولا يزال جثمانها مجهولا، وهى التى تركت وصية مكتوبة تقول فيها للمقاتلين:

- "..... توجيه بنادقهم للاحتلال."

تنهدت وقلت لها:

- هذا هو الحبّ والنضال يا صديقتى ماجدولين، وقد لفنا الصمت بكثير من الحزن المرير واعترت وجوهنا مسحة من الكآبة فهممت بارتشاف قهوتى الباردة بحسرة كبيرة، أما ماجدولين فلم تنبس بِبنتِ شَفَة، بل كانت تمسح دموعها الحارة....

اللحظـة الخرساء

العينان مغلقتان، والوجه شاحب، وشفتان بلون البنفسج داكنة، وخلف الصمت طفلة نائمة من الوجع، بجسد متورم، تتنفس ببطء، تفتح عينيها مرة ثم تنام مرة أخرى.

كان الضوء خافتا، باهتا، والسماء دكناء، حبلى بدخان كثيف امتصت رحيق النحل والزهر، أين انفلت خيط الحكايا الجميلة وابتسم على جراحها، ومازالت الطفلة نائمة بعينين مغمضتين بعدما كسا ظلام خفيف غرفتها، لم تتحرك، لم تشعر بالخوف، ولم تأبه لحشرجة أصوات خافتة من حولها، وقد انتابهـا احساس بوحشة المكان، تعتريها هواجس مخيلة ضاعت مع صورة أمها وفقد والدها سالم البكري.

فى صباح يوم ماطر تذكرت أيلول الفاجعة، بعدما سمعت تردّد اسم والدها على الشّفاه وتناقلت الناس أخباره قائلة:

بقى غليون والدى أخبئه بين حاجياتى الثمينة، أشم رائحته فيه، أتحسس أصابعه على ملمسه، فتكبر الغصّة بداخلى يوما بعد يوم.

تذكرت بيتنا وهو يقصف بالطائرات، هالنى المنظر المرعب، أسرعت بعيدا أبكى بعدما سقط الخبز من يدي.

رمى بى الدوى بعيدا، وجروحى تدمى من شظايا القصف، يتوارى بيتى عنى خلف الدخان الكثيف، لملمت شذرات تفكير هربت منى لحظة الذهول، استحضرت المكان الذى أنا فيه، ثم تفطّنت فى غفلة منى إلى

أمى وأبى وإخوتي، وجدت نفسى بعيدة عن المكان، فقد كان الدَّوِيُّ قويا بالنسبة لى ودفعنى بعيدا.

استوقفتنى اللحظة الخرساء التى امتصتنى فى جوفها وأيقظتنى اللحظة المرعبة على وجعى مع غيبوبتى وذهولي، وتناثرت الشظايا والأشلاء أمامي، وجسدى المحموم يغلفه سواد الحمم والرماد.

انسابت دموعى وعاودنى الحنين للبحث عن عائلتى بعدما أفقت من هول الصدمة.

مسحت الغبار عن وجهى الذى لم يعد وجهي، وبأرجل حافية وأثواب ممزقة وجراح دامية، هرولت مسرعة أجـر جسدى النازف إلى مكان بيتي.

لم أجده، كان قد افترش الأرض بساطا من الركام وبقايا من ألسنة النار والدخان المتصاعد تأكل بعضها بعضا وتلتهم فجيعتنا نحن الصغار.

وسط الزحام كنت أصرخ وأبكى نائحة:

- ....أمى ...أمي..

- أبى ..أبى ..صابر..أمي..أمي..

لا أحد يردّ على صوتى المبحوح، وانتابتنى موجة من الغضب الساخط ، هيجان، قلق، خوف، ودموع حارقة.

أرفع بكلتا يديّ الصغيرتين والداميتين حجارة بيتنا، أفتش عن أمى وأبى وأخى صابر..

وبدأت الريبة تسرى فى مفاصلى المتورمة، لم يكترث أحد لصراخى ولنحيبى المفجع، كلهم كانوا مكلومين، مصدومين.

ونحن هكـذا فى اللحظة الخرساء صعق أذاننا دويّ آخر، رعد قوى رجَّت له أجسامنا المتهالكة، اعتقدنا للحظة خرساء أننا شظايا متطايرة فى سماء ماطرة حمما، ولكن الدوى كان دخانه فى الضفة المقابلة، وازداد نواحى وانطلقت اللحظة الخرساء القاتلة بصراخ أشـدّ من انفجارات الطائرات المقنبلة.

وعدت أفتش بين الركام عن بيتنا وأمى وأبى وأخي، كانت الجثث محترقة ومفحمة، فجأة لمع من وسط فوهة شبه عميقة دخان يتخلله شعاع بريق يضيء المكان.

صعدت كومة الركام بأرجل حافية ملتهبة من الحرارة، أرفع بيدى الداميتين الحجر تلو الآخر، أفتش عن الضوء المنبعث من تحت الركام، كانت اسورة أمي، ذراع أمي، أصرخ بقوة وصوتى يردّ على صوتى المخنوق:

ـ أمي... أمي...

انتشلت ذراعها المفصولة عن جسدها من تحت الركام الملتهب، ذراعها بين يدى الداميتين، ذراعها محترقة.

أحمل بين يديّ المرتجفة ذراع أمى المتفحمة واسورة فى المعصم تلمع، ثم اجتاحتنى قشعريرة حارقة عمّت كل جسدى المتورم وأطلقت صرخة مدوية فى السماء ارتعبت لها كل الوجوه الحزينة، وقد جف

الدم النازف فى أوصالى وتسمّرت فى مكانى كتمثال محنط .

أحمل بين يديّ ذراع أمى المقطوعة وأضمه إلى صدرى بعدما عادت اللحظة الخرساء تغلق فمى وتكتم صراخى بداخلي.

أسمع صوت جدّى اليعقوبى من بعيد يناديني، لم ألتفت إليه ولا إلى أولئك الذين كانوا من حولى يفتشون عن ذويهم، ولم أستطع أن أبرح المكان حتى يردّ أبى سالم من أى مكان.

بقيت برهة جاثمة فوق الركام، وذراع أمى المقطوعة أضمه بقوة إلى صدرى الصغير، وقلبى المشتعل ينزف بحرقة، وصوتى المبحوح قد ابتلعته اللحظة الخرساء.

مازلت أنتظر فوق الركام الحامى أن تردّ أمى بأنينها على أنيني، ومن تحت الأنقاض تضمني، لكن لا صوت لها يسمع.

ومازلت أنتظر أن يرفع أبى الركام بقوة عضلاته ويضمنى إليه مكفكفا دموعى ويسكت لوعتى ويجهز على لحظتى الخرساء.

وأنتظر بكاء أخى صابر لأهرع نحوه بزجاجة الحليب ثم يجفف دموعى الهاربة منى بابتسامته البريئة.

ولا أزال، ولا أزال أنتظر، وجدّى اليعقوبى مازال واقفا ينتظرنى أن أردّ عليه.

تفطن عمى زكريا بن اليعقوبى وهو يلمحنى فوق الركام فأسرع إليَّ ينتشلنى من لحظتى الخرساء ومازال ذراع أمى المقطوعة فى يدى ينزف دما.

هزّ جسدى بكلتا يديه وبقـوة، لكنى لم أتحرك، حاول أن يكلمنى مرات ومرات، لم أنطق بشيء، ثم حاول أن يسحب الذراع المقطوعة من يديّ، لكنى شدّدت عليه بقوة البركان الذى بداخلي.

فهم ما فهم وحملنى بين ذراعيه، وما زال ذراع أمى المقطوعة بين يديّ.

جدّى الذى ابيضت عيناه مع مر الزمان كظم غيضه بغصة قوية ظهرت على يده التى يمسك بها عصاه متوكأ عليها كأن الأرض زلزلت تحت قدميه.

ضمنى جدّى إليه بقوة ومازال ذراع أمى المقطوعة بيدي، وراحت يداه تتحسس جسدى وهو يحاول التخفيف عنى ببحة اعترت صوته المكلوم، قائلا:

ـ أيلول يا صغيرتي.

مازال جدُّك حيا، أنا هنا معك، لا تخافى!

وهو يحاول أن يمسح دموعي، ويشدّ على يَديّ فإذا به يتحسس ذراع أمى المقطوعة وتلامس أصابعه سوار أمي، ثم أردف قائلا:

ـ هل تلبسين اسورة جميلة؟

وقتها أجهشت بالبكاء، بكاء مرا أبكى جدّى وعمى زكريا وكل من كان حولنا، صارخة فى وجهه..إنه ذراع أمى المقطوعة، واسورتها مازالت لاصقة به.

فُجع الجميع وأجهشوا بالبكاء ...

بيتنا بقايا ركام أسود وأهلى جثث حرقى ومفحمة، احترق أخى صابر ابن الأربعة أشهر، رضاعته احترقت ومصاصته التى وضعتها فى فمه قبل خروجى من المنزل لشراء الخبز ذابت والتصقت على شفتيه الجميلتين، وهو الذى كان يبتسم لى كلّما حملته بين ذراعى ساعة انشغال أمى بشؤون البيت، كانت لا تخاف عليه معي، كانت تمازحنى قائلة:

- "تعلَّمى تربية الأولاد، حينما تكبرين سوف تتعلمين كيف تربين أبناءك".

كانت الطائرات المقنبلة تبحث عن جوعها فى أجسادنا العارية، تبحث عن أم ثكلى تفرغ بطنها من وليدها، كانت تعرى أجسادنا النحيلة وتغطينا برماد الجمر ولسع البرد.

كانت تفقدنا عذريتنا فى أنهار من الدماء، تتسلّل إلى خجلنا فى كبد الليل، تسرق عشقنا وتعدمه على أشجار الزيتون وبياض اللوز.

فى حقل المأساة فقدت عائلتى وتركتنى وحيدة فى العراء، أطأ العتمات بأقدام حافية ويقينى نهر حزين يرقبني،وسلاحى كفاحى الصامد ولحظة خرساء تطاردنى إلى الأبد؟

فى حقل المأساة أمشى وحيدة وشقيقى صابر كطائر طار واحترق، بعدما داعبته وضاحكته وأرضعته، احترق ضاحكا، احترق ومصاصته فى فمه.

آه .. آه من لوعتى يا أمى وآه يا أبي.

خسرت عمرى وطفولتى وشبابي، كم يؤلمنى بكائى فى معتقل الحياة

يا أمي، أعانق ريح أرواحكم فى السماء، ثم تلفنى نار الفقد يا أمى حارقة وموجعة.

هذا السِّوار الذى كان يزين معصمك أخبئه بين أشيائى البسيطة، أذكر قولك لى ذات يوم:

- "هذا السِّوار سأضعه فى معصمك يوم زفافك، لقد كانت هدية جدّتك أم السعد وأنا ألبسه إياك يوم فرحتى الكبرى بك".

حينها اعترتنى حمرة وسخونة وهرعت نحو صابر ألاعبه.

آه يا أمى ليتنى أضعه اليوم فرِحة، مزهوة بليلة العمر التى تنتظرها كل فتاة، اليوم يا أمى سوارك هو وجعي، هو حزني، هو صدمتى ولحظتى الخرساء.

كرهت يا أمى الأساور والحلى تزيننى، كرهت البهرجة والتأنيث بعد رحيلك، وكرهت يا أبى ذاتي، ليتك بقيت معي.

أحن يا أبى أن تشدّ على أذنى وتتمتم محذرا، لم تعد أذنى حمراء تحرقني، ولم تعد عيناك أمامى تومض غضبا، ولم يعد طائر الحسون يزقزق فرحا.

مازالت رنّة صوتك فى مسمعى تدوي" الانسان خلق حرا"..

مازال ومازال.. ومازال..ومازال طائر الحسون يغرد حزينا.

وآه يا أبي..

لم يعد لك يا أبى قميص كى أرميه على وجه جدّى اليعقوبى كى يرتدّ بصره فكل ملابسك احترقت ....

تــلال الرِّمــال

يا أبى الأوضاع فى المخيّمات مؤلمة ومزرية، والضغط يولد الإنفجار كما يقال، هنا فى المخيّم لا بيوت لنا، بعض الأغطية والمؤن التى تتبرع بها المنظمات الإنسانية، وحالنا كحال الرحل، وأصبحنا يا أبى مشاريع للاعودة والبحث عن وطن بديل.

فى المخيّم علينا أن نتحمل الأوضاع الاقتصادية والصحية والاجتماعية والنفسية، فى المخيّم إما الصمود وإما ترك المخيّم والهجرة إلى مكان آخر أو الاستسلام ومحو الهوية الفلسطينية فى حق العودة.

هذا هو المخيّم يا أبي؟

لا تخف يا أبي، أنا اليوم عند جدّى اليعقوبي، أعيش معهم فى المخيّم، لقد ماتت زوجته خالتى أميمة بعدما ألمت بها نزلة برد قوية أصابت جهازها التنفسى وهى التى كانت تعانى من مرض السّل، ماتت من البرد فى المخيّم.

بقى له إياد وقد سافر إلى سوريا لإكمال دراسته، البارحة كنا مطمئنين عليه، أما اليومَ فالحال أشدّ إيلاما، نخاف عليه من الغوص فى قاع ما يسمى بالحرية والإنسان وشعارات الجهاد التى خربت المدن وأحرقت الأخضر واليابس، أن تجرفه آلة الموت وترمى به فى الوديان أو فى الغابات أو على القمم أو فى الصحارى فالتاريخ مازال يذكر نهر

الدماء وزحف التتار ونهر الفرات الذى بقى أربعين يوما ملونا بحبر الكتب المغرقة فيه، هم هكذا اليوم يشبهونهم؟!

كانت العواصف تطاردني، تطارد بعضها بعضا وقمم من الثلوج تسكن تلك المدن الباردة، وصقيع آخر بارد يرعبنى وألوان من المذاهب المختلفة تمجد وتتطاول وتقلب وتكسح وكنت أنا من بين تلك الخرافات، وبين تلك الأمجاد والآثار حائرة، وبين سنين من الحروب والألم فَرَّخت وراءها خصلات من الشعر المبعثر ونساء تندب نائحة، باكية، تندب حظها العاثر وتلملم جثث أطفال يغتسلون بأنهار من الدماء.

كانت رائحة الموت فى كل مكان، ورائحة الجثث النتنة تطاردنى بين الدروب، كنت كاليتيمة تتسلل السهام المسمومة إلى قلبها وحكاية حب تحرك أحلامى المرعوبة، تغيثنى من انتقامى كما كان المغول يزحفون دون رحمة بعدد الرمل والحصى، يتركون وراءهم الخراب، وتلعق المدن الجراح وتبكى الجماجم، ونائحات نسيتها السيوف فى غفلـــة منها.

ذات يوم من شهر آذار وفى ليلة مقمرة سمع دويّ انفجار قويّ بالقرب من الضيعة المطلة على المدينة التى تلتحف الظّلام ليل نهارا، خرج الكل بألبسة النوم مفزوعين يتساءلون.

وفى الصباح الباكر، فتحنا أعيننا على سيارات عسكرية مدججة وقبعات ملونة وأجسام خشنة تحاصر المكان وتفتش فى كل مكان عن وجوه المقاومة وتقبض على خيرة شباب المنطقة، وكان من بينهم عمى زكريا الوحيد الذى بقى مع جدّى اليعقوبى بعد هجرة إيـاد وسجن ياسر.

كان جميل المحيا، حسن الهيئة، مفتول الذراعين، غزير الشارب، عزيز أبيه وحبيب الأهالى وهو الذى انتشلنى من لحظتى الخرساء ذات يوم أسود.

حينما تقدم العسكرى نحو عمى زكريا عنّفه بقوة، فردّ الضربة بلكمة منه، وإذا بمجموعة من العساكر تلتف حوله وتنهال عليه بالضرب أمام الأهالى والجدّ المسكين يروح ويجيء بينهم، تتقاذفه الأيادى الخشنة غير آبهة بشيخوخته.

دفع عمى زكريا داخل السيارة بقوة مقيّد اليدين والكدمات بارزة على وجهه، ومنذ ذلك الوقت لم يعرف له أثـر، لا نعرف إن كان حيّا أو ميِّتا، هكذا ندفع ثمن الحرية يا أبي؟

خضع الأهالى للمراقبة والتفتيش والإعتقال والترحيل ومراقبة الصغار واستفزاز البنات.

عمى ياسر فى السجون الإسرائيلية منذ عشرة أعوام أو أكثر، مازالت عيناه تترقبان بزوغ فجر جديد.

أما حبيبة قلبى نابلس فهى شابة جميلة، نابلس حبيبة العمر، كانت تحب قص شعرها دائما، لا تحبه طويلا، كانت بقصة شعر متقطعة وقصيرة وترتدى معطفا أحمر، حتى أننى ظننتها ليلى والذئب، قصة كانت تحكيها لى أمى فيما مضى، تعانى هى الأخرى من فقد أمها وأخويها وتتألم لآلام والدها جدّى اليعقوبي.

جدّى محدودب الظّهر يمشى على عكاز متآكل، يسحب رجليه

الثقيلتين والمنتفختين من شدّة البرد فى المخيّم فهو يعانى من التهاب روماتيزمى حاد.

لا تغضب منى يا أبى فوجعى يكبر يوما بعد يوم فى المخيّم، لا تغضب منى يا أبى لأننى لم أعط غليونك لجدّى اليعقوبي، احتفظت به لنفسي، فأنا لم يبق لى منك شيء سوى ملامح وجهك، أما جدّى فقد لعب وشاخ به العمر معك.

لا تغضب منى يا أبى لأننى لا أريد أن أسمع حكايا جدّى عنك فأنا أتألم وقد أجن من أنينه عليك ساعة الأصيل.

لا تلمنى يا أبى فروحى متعبة، موجوعة برحيلكم، وآه يا أبى وآه يا صابر.

بعد شهور من القصف وقبل ترحيلنا زرت مكان بيتنا ووقفت على أطلال العمر، بكيت بحرقة شديدة، فتشت عن كتبي، عن ملابسى ودميتي، عن صورنا، أنا اليوم يا أمى عارية، عارية وموجوعة ومشتاقة.

مشتاقة إلى كحل عينيك، إلى بياض وجهك، وإلى سجادَتك، أريد أن أصلى يا أمى على سجادتك كى تهدأ روحى ويسكن ألمي.

لم تحدثنى يا أمى عن الدم الأحمر الذى يفصلنى عن حياتى الأولى وحياتى الثانية، نزلت قطرات الدم والدموع تغسل وجهي، لن أنسى ما حدث لى ذلك اليوم وقد بلغت من العمر اثنى عشر عاما.

حينما اقتحم الدم براءتى ولوّن فستانى المزركش، بكيت كثيرا، لأننى كرهت الدم واللون الأحمر، ثم هرعت نحوى نابلس مذعورة وخائفة.

قالت لي:

ـ لا تخافى ..الأمر بسيط.

كنت مذعورة، لكنها هدأت من روعى ودفعت بخوفى إلى الحديث عن هذا الأمر الذى رحم الله به المرأة.

قلت لها:

ـ إذن أنا نصف امرأة؟

ردّت ضاحكة:

ـ ما هذا القول يا أيلول.

أنتِ شابة جميلة، أنتِ امرأة كاملة وسوف تتزوجين وتنجبين الأولاد، وتعيشين حياة سعيدة، أنتِ ساحرة وفاتنة.

كنت أحاورها بأنين مكتوم، لأول مرة تتورد وجنتاى كشقائق النعمان، بعدما باغتتنى الدهشة المريبة، وأنا أتخلص من الحكايا القديمة التى ترعبنى فى ذاتى كأنثى.

مر على القصف يا أمى سنوات وسنوات، البارحة لم أشعل شمعة الميلاد فى المخيّم، فقد كانت الريح تلفنا مزمهرة، ولم أشتر كعكة ميلادى فقد كنت أتقوّض جوعا، ولم أمشط شعرى الأسود وأهرع نحو أبى أفتش عن حبات الشكولاطة فيقبلنى ويدغدغني.

مر يا أمى من عمرى أكثر من عشر سنوات ولم أكبر "مضى عامان يا أمى ...

ولم أعثر

على امرأة تمشط شعرى الأشقر
وتحملُ فى حقيبتها عرائس السكر
وتكسونى إذا أعرى
وتنتشلنى إذا أعثر"[1]

.....

يا أمي.. أنا اليوم عارية، فراشى فى المخيّم بارد، وبين ضلوعى وجع بارد، لم يبق المقهى المجاور لبيتنا، ولا الشارع المطل على البحر، لم يبق زرعك بجنبات البيت ولا جفنات عناقيد العنب متدلية خلف الأسوار، كل شيء تفحم وأرعد وأزبد وانتحر.

يا أبى إنى أسمع صوت الغارات وأصرخ بلا صوت وأغيب خلف بكائى ونحيبى لأطفئ ظمأ الغل بداخلى وأحزن على أجمل ضفة كنت أمشى عليها وأخبئ حبات الحلوى من ابن البريطانية أندريا، لقد تورد فيها الجرح وأعدم فيها زهر اللوز، ولم تعد عكّا مدينتى ولا ضيعتى مسكني.

ولم يعد لخبز التنور فى فمى طعم غير بكائية درويش أردّدها بداخلى كلما يقوِّضنى الجوع:

أحن إلى خبز أمى
وقهوة أمي
ولمسة أمى
.....

١- نزار قباني، خمس رسائل إلى أمي.

كانت أمى سخية، يدهشنى سر جمالها ويدهشنى كرمها، وسر تمردها، عيناها تخترقان الصمت والكبت، نظراتها تلك كانت تعانق الجراح والنسيان معا، كان ذلك يزيدها حكمة وفطنة.

كان جدّى اليعقوبى يحبها كثيرا، ذاكرتها حبلى بالتفاصيل، تستعرض أمامه الماضى بكثير من الحبّ والكبرياء والعظمة، كانت بالنسبة له عيناه التى يرى بهما عتمة المكان وتفتح له قمقم الذكريات بحلوها ومرها وتسرق منه ربيع الأيام الجميلة.

منذ الطفولة كنتُ أعى ما يدور حولي، فقد كان جدّى اليعقوبى يحاور أبى فى العديد من القضايا الوطنية، ومرات كان يصمت كلما شعر بوجودي، شعرت أن لديه ما يقوله ولم يكن قليلا..

المخيّم بارد وكنت أتنفس بصعوبة، لأن نزلة البرد كانت قد عضعضت مفاصلى وسكنت فى أوصالي، كنت مزكومة يا أمى ومريضة.

أنا يا أمى اليوم مريضة وأخشى من زائرتى لؤمها وغدرها وقد صدق أبو الطيب حينما قال:

وزائرتى كَأنّ بهَا حَيَاء
فَلَيسَ تَزُورُ إلاّ فى الظّلامِ
بَذَلْتُ لهَا المَطَـارِفَ
وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فى عِظامي

وبت ليلتها بين حر وقر أو كأنى تحت قمم ثلجية بيضاء أبحث عن جدائل سوداء أحرقتها الغارات، أهمس لها فى ظّل صمتى الحزين عن

وجعي، لا أحتفظ فى ذهنى إلاّ بالملامح والظلاّل والسواد يسكنني، ولا أحتفظ فى ذاكرتى إلاّ بقول المتنبي"ما بال قبرك يا كافور منفردا" يقلق أحلامي، ولا بالألوان إلاّ سواد كافور الأخشيدى يزورني، ولا من شِعر المتنبى إلاّ هجاءه، ولحظه العاثر وقع بين أسنة الصخور وهوى سحيقا فى وادى النسيان، فى وادى التاريخ، وبقى ظّله يلازمنى كشهب نارية تلهب حياتنا، ولم أكتشف إلاّ المتنبى فى حياة كافور وبين السطر والسطر صاعقة بل صواعق سوداء، ونسيت أن كافور جعل يده مبسوطة كل البسط للمحتاج والزاهد والعالم كجدّى اليعقوبي.

هكذا كنتُ إلى وقت قريب، أشتهى أن أحضن الماضى وأغمض عينى عن ظلم نسى التاريخ أن يسجله، ولم يستطع أن يضمد كبرياء الجريح إلاّ بغطاء أبيض يوارى به سوءته.

كنتُ تلميذة نجيبة، أذهب من حين لآخر إلى المدرسة، فكلما اشتدّت الغارات والقصف نتوقف عن الدراسة وتغلق المدارس أبوابها لتُحَوَل إلى مراكز هامة للقصف والهدم ومسرحا رهيبا للمجازر، وهكذا وجدنا أنفسنا كأطفال فى العمل الثورى دفاعا عن براءتنا وأحلامنا المغتالة كما كانت تقول السيدة مارى روز وهى مدرسة ومساعدة بوكالة غوث للاجئين الفلسطينيين فى بيروت.

المُدَرِسة المسكينة كانت تقدم المساعدات الإنسانية، ومن حين لآخر تقدم لنا كأطفال ضيَّعت الحرب مستقبلهم دروسا تعليمية، فكان تورطى مع الحرف هو السبيل لإنقاذ ما تبقى من حياتى وأخريات.

لقد بكيت كثيرا فوق ركام المنازل، ومنذ ذلك الحين وفجرى يدمى تحت ضربات سياط الاغتراب.

كنتُ أمارس حركية المكان بوعي، أبحث فيه عن أنفاسى وأرواح ألفتها واستوطنت الذاكرة، لم يعد لى هناك بيت أو زيتونة، لم يعد هناك كلبنا تيو ذو الذيل الأبتر، كلبنا عوى ليلا فأردته رصاصة غدر قاتلة أرضا، ومنذ ذلك الوقت لم يعد ببيتنا كلب يعوي، وبقيت منه حميمية الذكرى ومكان موحش.

هم أفضل الناس الذين صنعت معهم ذكريات الطفولة قد رحلوا وبقيت أحمل صورهم ووجوههم وألوانهم وابتساماتهم فى ذاكرتى المشروخة، رحلوا وبقيت أحملهم بداخلى وقد طويت فى ذاتى جرحى الذى تركنى دائما فى حركة البحث عن ملامحهم فى وجوه الآخرين أو الشبه منهم.

حفر موت كلبنا تيو رحيلا وفراغا رهيبا فى بيتنا، ومازلت أتذكر نشوة الفرح بكلبى ونحن على حشيش ناعم تحت أشجار الزيتون، دجاج أمى المحمر وطعمه الحلو بنكهة الثوم والزعتر تسيل لعابي، وما بقى معى إلاّ عصفورى طائر الحسون، طائر المَحَنَا يغرّد كل يوم مواويل حزينة تؤلمنى وتزرعنى على شتات الضياع من جديد.

تناهت إلى سمعى خشخشة غير مألوفة وتصارعت الأفكار فى ذهنى تحارب بعضها بعضا ولم تترك الفرصة لأخرى كى تنتصر عليها حتى سمع دويّ يزلزل الأرض من تحت أقدامنا.....

الذاكرة المشروخة

اليوم، عكّا حزينة، المدينة الجميلة تناثرت كالهباء المنثور أمامي، الدخان الأسود يتصاعد فى الأفق، يلف أحلامنا، ورائحة لحوم بشرية مشوية تحترق، وخارج الأفق شمس محتشمة، محجبة بوشاح أسود يسرق ضياءها..

المكان مكتظ بالبشر، وآخر مكتظ بالجثث المتراصة، وآخر بعيون دامعة وقلوب مجروحة، وآخر بحركة بشر متزاحمة وآخر هارب بحلمه، ليسرق من المساحات الفارغة سكينته، ووجدت نفسى وسط مساحة أخرى، بلا شك لم تكن فى المدينة، لأننى لم أعد أعرف الشبابيك المفتوحة، ولا الساحات الواسعة، ولا تصميم المدينة، ولا الشوارع الطويلة.

المدينة بعضها واطئ، والآخر كومات من الركام، وأنا لا أدرى فى أية نقطة من المدينة أقف!

الخراب الضارب أطنابه يرثى المدينة، يرثى الأسوار المنقوشة ببصمة الأجيال البائدة التى نفخت فيها من روحها، وتفننت فيها من صبرها، وما أراه اليوم لا يعدو كومة أشباح لوجوه تلاشت فى زحمة الحكايا واللهب..

وَلِجتُ العتمة التى حملَتْنى على الدهشة، فمشيت فوق الركام الحامي، مشيت ومشيت ويد أخرى تشيّع الحلم فى روحى هاربة،

تتخطَّفُنى دهاليز المدينة المنكوبة، تترصدنى العيون الباكية، كل ذلك تركته ورائي، وخرجت من نقطة تمركزى إلى أرض تزحف من تحت أقدامي، وخطى أخرى تتسارع نحوي، ثم تهرب مني، وأنا فى الدروب لا أعرف فى المدينة أين رمى بيتى دويّ الانفجار.

عكّا...

عكّا ولِجَت العتمة لم تلحظ خروجى ولا دخولي، عكّا سرقت كحل عيوني، وتزينت به، فمُها مفتوح على الجراح، لم يعد فمُها متأهبا لقبل العاشقين، ولا إلى نظرات الحالمين، جسدها الناعم تهالك، والفراغ فى جوفها مفتوح على الهاوية، ونواح طويل يستقبلنى خلف رماد البيوت التى غادرتها مكرهة، تشبه الأوهام التى تطاردني، وأنا فى لحظتى الخرساء.

اليوم عكّا حزينة وشاحبة، والضيعة فارغة وموحشة وباردة، لا أصدق أننى سقطت كورقة خريف ذابلة، وبقيت وحيدة فى العـراء، أمرر الساعات وأنتهى بوجعي، وأقلب النظرات من حولى فتهدأ شهوتى للحياة.

من حولى أحكيها خرابا بروحي، وبقايا من الذكريات الجميلة مازالت تبتـز كهوف ذاكرتى المشروخة.

وددت لو أنام فى حضن أمي، وأقص مأساتى بعدها، وددت أن أحكى لأبى عن فقراء الضيعة بعدما طردوا منها إلى مخيّمات باردة، عن أقرباء لنا سجنوا وماتوا وعذبوا ورحلوا،...

وددت أن أحكى لأبي، عن كل واحد من الأهالى وهو يحمل حقيبته وقلبه بكثير من الصمت والرهاب.

وددت أن أخبره، وأخبر الموت أن يمهلنى نظرة إلى وجوههم، وفى زوايا بيتنا، وأن أحمل صورنا العتيقة معي.

آه..

لقد كنت ابنة أبى سالم البكري، غزا الشيب مفرقي، ومازلت ابنة أبي، أهرع إليه محتضنة فى مخيلتى كل أطياف السماء، أنام فى حضنه كصغيرة تتوسد ذراعه اليمنى، وأندس فى عباءته كطفلة تتوارى عن الأنظار، ومازلت ابنة أبى سالم البكري..

أبى بعباءته وكوفيته وفرسه ذاكرة أمة، وروح متجددة بداخلي، ترعانى وتحرسني، أنا الكبيرة الصغيرة فى عيون أبي.....

وددت أن يبقى من بيتنا القديم مكان ولادتي، ورجفة أمي، ودهشة الحارة من صراخها، فتهرول العجوز أم سالم إليها فى قلق، بصحن الماء الساخن نحوها، وهى تصرخ، تتعثر بوالدى بعدما ارتطم قدمه بقدمها، حتى كادت أن تسقط بصحن الماء الساخن، وقد تدفق القليل منه على الأرض، وانتفضت العجوز غاضبة فى وجهه قائلة:

- اخرج من هنا ..هيا ..اخرج..

وددت أن تُكْمل أمى قصة يوم مولدي، وأنا أتلملم فى حجر أبي، وهو يداعبنى ضاحكا، يا عفريتة، ماذا فعلتِ بنا؟

وددت أن أمتلك الحياة، وأدفع الموت عنكما، وددت يا أمى أن

أخبئ دميتى فى فراشها، حتى لا تحترق وتأكلها ألسنة النار، وددت...، ووددت...

ولكن لم يبق شاهد منكم غير جسمى الهزيل، ولقمة لم أتذوق طعمها، منذ فجر ذاك اليوم الذى احترقت فيه المدينة، وخوفى من المجهول يحفر مخالبه فى عقلى الصغير، وصفير ريح بارد يلفنى بين أحضان جدى المتعب.

ما تبقى من العمر يا وطنى أضعه بين يديك، ما تبقى من العمر أهديه إليكَ بانكساراتي، وما تبقى من العمر دمعتان حارقتان، وابتسامة باهتة، كالتى كانت مرسومة على وجه دلال المغربي، وكأنها نائمة.

وما تبقى من زهر اللوز، أنثره على جراحِك يا ضيعة الطفولة....

أريد لحظة السلام أن ترفرف على روحى الجريحة، والحلم بالنور أن يمزق ستارة الظلام الذى يسكنني، ولكن يا أمى ما جدوى النور، وبعدَك حياتى ظلام.

اليوم يا أمى المدينة خراب والوجوه شاحبة، اليوم يا أمى الأرض حبلى بالقبور، ليتنى وجدْت جسدَك لأحفر لك قبرا، وأضع لك شاهدة، وأكتب عليها: هنا تنام روح أمى الشهيدة، وأزورك كل يوم.

لقد دفنت ذراعك من دون سوار، سامحينى يا أمي، لقد نزعته من ذراعك المتفحمة وخبأته عندي، هو قطعة منك، هو روحك التى تحوم حولي.

البـارحة، حفرنا القبـر لأبي، كانت جثّته مفحمة، أما صابر لا أعرف ملامح وجهه، لكن وُضع له قبر صغير بجانب أبي، وقبر لذراعك يا أمي.

كنت أريـد أن أستعيد بريقـا فى صوتك الذى خلتـه فاترا، لم يبق لى غير جدى ونابلس ابنته تساعدنى على ترميم ذاتي.

منذ ذلك الحين يا أمي، منذ لحظتى الخرساء التى كبلتنى وابتلعت صراخى وأنا أفتش عن الحقيقة، أفتش بين دفاتر التاريخ.

قـررت يا أمى أن أكمل دراستى وأدخل قسم التاريخ، أحب التاريخ وأكرهـه لأنه سرق منى نور عيوني.

أريد أن يجيبنى عن أسئلة كثيرة أيقظتها بداخلى الطائرات المقنبلة والقباعات العسكرية والأسلاك الشائكة والحدود ووحدات التفتيش والمداهمات الليلية والسجون العسكرية.

مازلت أشهد، فى زحمة الفوضى، على امرأة بُترت أوصالها أمامى فى لحظتى الخرساء ورضيع يبكى من الألم، وأرواح أخرى أنهكها الوجع.

أريد أن يجيبنى عن الأراضى التى اغتصبت منا، وحُوِّلت إلى مستوطنات، وأخرى إلى كومة رماد، لقد صفعنى الواقع يا أمي، بكثير من المرارة التى ألعقها اليوم، وجراح عميقة لن تندمل.

تعلمت يا أمى من عرائي، وجوعي، وفزعي، واضطرابي، وجنوني، دروسا لا تقدم فى أكبر الجامعات التى تنادى بالحرية وحقوق الانسان.

عن مرارة الإعتقال التى استنْطقُها من رسائل عمى ياسر إلى جدّى اليعقوبي، الذى وصلته رسالة واحدة أو رسالتين لا أكثر، كان يكتب فيها كل شيء.

كان ياسـر يقول:

داخل السجن الزمن يطول ويطول، لا يشعر بتعاقب الأيام والليالي، كلها تمر كيوم واحد، وليلة ليست ككل الليالي، قد يشيخ فيه الرَّجل، أو يخرج منه على قبره ، داخل السجن الأمر مختلف، السجن هوالموت البطيء.

كان العساكر يجردوننا من ملابسنا، ويعبثون بأجسادنا المتورمة بالكدمات الزرقاء من شدّة الضرب، وهناك من زرعوا جسده بالرصاص، ويضيف قائلا:

كنا نتعذب ليلا، تنسب لنا أعمال لم نقم بها، أنا وحدى كنت مكبل اليدين وغارقا فى دمى من شدّة اللكمات على وجهي، وجهى كله متفسخ وأنفى مفلطح ومتورم ، لم أكن أرى النور وأنا فى زنزانتى الإنفرادية، أبقى فيها لأشهـر، كانت الجرذان تعيش معي، ألفتها وألفتني، وأحيانا آكل من فتاتها...

وأمضى ياسـر الشاب الأسمر حياته كلها فى السجون حتى نسينا شكله، مازالت بعض صوره القديمة وهو صغير معلقة على جدار الذاكرة، نعم لم يعد هناك بيت نعلق عليه صورنا العتيقة كما قالت الشهيدة شادية أبو غزالة.

أخبرنا كذلك فى رسالته الثانية قائلا:

هناك يا أمى حدثنا عن النساء المعتقلات، سجينات الجدران[1] اللواتى قدن العمليات الفدائية وقبض عليهن، ويقول أنهن كثيرات "لينا النابلسى ورسمية عودة، مريم الشخشير، رندا النابلسي، إيمان عيشة، لطيفة أبو ذراع...الخ، وأخريات سجينات مع أطفالهن الصغار، يعانين مرارة السجون والجوع حتى كبر صغارهن بين القضبان.

وهناك من أنجبت صغيرها وكانت صراخاته الأولى مسجونة تردّد صداها زنزانة موحشة، فتذكرنى بمناضلات الثورة الجزائرية وسجن سركاجي.

تذكرنى بحكاية المجاهدة السجينة فاطمة خليف [2] وهى تضع مولودها وتقطع إحدى النساء التسعين اللواتى كن معها فى السجن سرة مولودها بموس حلاقة .

وعندما طلبت النسوة الحليب للأم ومولودها أصيب مسؤولو السجن بالدهشة، وسألوها:

- ما قصة هذا الصبي؟

قالت:

- "هذا المولود حمِلت به فى الجبل، وهو فلاق ابن زوجى الفلاق، لذلك لا يولد إلاّ فى السجن".

١- أسماء حقيقية لبطلات فلسطينيات.

٢- البطلة المجاهدة فاطمة خليف تنتمي إلى بلدية الألف شهيد بني سنوس بنواحي تلمسان. الجزائر.

ولَمَّا أُخِذت إلى المحاكمة العسكرية الفرنسية، تم الحكم عليها بالسجن ست سنوات، خفض منها سنتان بسبب ولادتها فى السجن، وعند صدور الحكم أطلقت زغرودة ثم قالت:

- "أنا أحيى رئيس المحكمة لأنه متفائل جدا، لأنه يعتقد أنهم سيبقون فى الجزائر أربع سنين أخرى..."

لا تصدقى يا أمى إن قلت لك أن رسائله التى كنت أقرأها ونابلس كانت كالأحجية معقدة، متشابكة، مؤلمة وفظيعة، تشبه حكايا الجدّات كأنها أسطورة على أرض الواقع، كأنها الثورة الجزائرية على أرضنا.

وكان يقول يا أمي:

- إنه لم يعد يقوى على الكلام، لسانه ثقيل، لا طعام ولا نوم وعار فى زنزانة باردة..

لم أستطع أن أكمل قراءة الرسالة، فلقد عقد لسانى عن الكلام، كنت أبكى بداخلى الوطن والذاكرة المتعبة، وقد كان يقول أيضا:

- إن هذه الرسائل تأتيكم مهربة؟

اليوم أصبحت أتجول بقدمين حافيتين ولم أكن وحدي، لقد كان ليل الاستيطان يخيّم على الأرض ويحجب النور عنا، ونحن بأنفس بريئة نقاوم وجعنا ونحمل الجمال فى كل صبح قريب يدنو من حلمنا وآهاتنا.

لم أشأ التوغل فى تلك التفاصيل المؤلمة، ولكن أدهشتنى نابلس بسؤالها عن القضية والوطن.

نابلس بشخصيتها وحساسيتها الدافئة أرغمتنى على حب الوطن

ونسيان الماضى والتوقف بعيدا عن منعرجات الذات وآلامها، ولكن الماضى يا نابلس هو الإحساس بالذات المبتورة، ومن الصعب أن نفصل بين ذات الماضى وذات الحاضر والوطن هو الروح المعذبة فينا.

كنت أسيرة انفعال داخلى أبكانى بالظّلم وأدركت أن الملائكة لا تسكن الأرض التى نمشى فوقها، بل فى زرقة السماء وبكاء السّحاب.

ومن ملامح نابلس توطدت علاقتى بالأيام المتتالية وشرَّعت لنفسى أبوابا أوصدتها ومآرب أخرى ضيَّعتها وأشخاص يصعب نسيانهم أو محوهم من الذاكرة رغم الزمن وجروحه.

كنت قد أضربت عن الطعام لمدة تبدو قصيرة وشهيتى للطعام فقدتها، ووقفت وجها لوجه مع خوفى ووجها مع نابلس التى زرعت ابتسامة خفيفة على محياي، لم أشعر إلاَّ بهزة رعب تنتابنى من حين لآخر وقد كنت فى قمة انهيارى وضعفي...

عطـــر الماضـي

حدثنى جدّى اليعقوبى فى يوم ما عن نكبة ٤٨ قائلا بعدما استوى على بساطه فى باحة بيتنا الجميل، واضعا كتابه بيمينه:

ـ لنا يا بنيتى أيلول جغرافيتنا وتاريخ عريق، ولنا تراث ملون بلون الجبل والساحل والرمل وتقاليد تميزنا، لنا زيّنا المطرز بالألوان منذ آلاف السنين، وحتى تراكمات الزمن حملَتها الجدَّات والأمهات مع الإبرة والخيط الملون ورسمَتها على أثواب تعكس التمازج الإغريقى واليوناني، وحَدَدْتها بألوان تضفى جمال كل منطقة كالأحمر والبرتقالي، وتعكس الجبال والأشجار وترمز للمعتقدات.

تظهر النّكبة مرسومة على أثوابنا التى تزيننا فى أعراسنا وأتراحنا، من جيل إلى جيل، الثوب الفلسطينى يظهر الحزن والحنين من خلال الألوان منذ القديم، وبمرور الزمن اختفت الألوان الزاهية كما غابت ابتساماتنا منذ ذلك الزمن.

فلباس الرَّجل التقليدى يا بنيتى القنباز أو الغنباز والكوفية، بلونيها الأبيض والأسود تعكس بساطة الحياة الفلاحية فى قرى فلسطين وضيعاتها ورمزا وطنيا يرمز لنضال شعبنا الفلسطيني.

لقد كان يلبسها الفلاح كجدّك المحدودب الظّهر لتجفيف عرقه أثناء فلاحة الأرض، وتقيه حر الصيف وقر الشتاء، ومن ثمّة أصبحت هى الأخرى رمزا للنضال والكفاح.

كان الفلاحون الثوار يلثمون وجوههم بالكوفية لإخفاء ملامحهم أثناء مقاومة القوات البريطانية خشية اعتقالهم أو الوشاية بهم، واستمر لبس طاقية الإخفاء أو الكوفية كرمز للثورة ولإخفاء ملامح الفدائى فى المدن بأمر من قيادات الثورة، لأن الإنجليز يا بنيتى كانوا يعتقلون كل من يضع الكوفية على رأسه مما صعّب المهمة عليهم فى الاعتقال، وأصبح كل شباب وشيوخ القرية والمدينة منذ ذلك الوقت ملثمين.

وأردفت قائلة له:

- والنساء الفدائيات؟!

ابتسم فى وجهى وهو يهزّ رأسه راضيا على قولي.

ثم سألته:

- ولباس المرأة يا جدّي؟

ردّ وهو يضحك:

- والمرأة المناضلة كذلك، تضع الكوفية وتلثم وجهها حتى لا تقع فريسة الجنود.

وهو يحدثنى عن عاداتنا وتقاليدنا، كنت أختلس منه شهوة الحياة وأستر بها عورتي، أختلس حريتى فى طعم العطور وأريجها الذى حرمت منه فى وطنى ونبت الرصاص تحت كل زهرة وزيتونة، وعلى وقع الدبكة يحدثنى قائلا:

تهتز الأكتاف والصدور والأرجل التى تضرب الأرض بصوت مرتفع

على وقع نغمات شعبية عريقة " الدلعونا.. الدلعونا..
راحوا الحبايب ما ودعونا"
وتقفز الأجساد من مكان لآخر فى حلقة دائرية.
- وأضيف مزهوة، وماذا عن لباسهم وحركاتهم يا جدّي؟
يردّ مبتسما:

راقصو الدبكة يا بنيتى أيلول بسراويلهم الفضفاضة والقمصان وغطاء الرأس المصنوع من قماش الكوفية فى حركة دائرية مرة ومرة مستقيمة تزلزل الأرض تحت وقعهم، وتصدح الحناجر بألوان وطبوع غنائية مختلفة، مرة للحب، ومرة لوجع الوطن، ومرة للحزن، ومرة للفرح.

وأعدت سؤالى له، وماذا عن لباس المرأة يا جدّي؟
فيضحك ملء شواربه الطويلة قائلا:

- وللمرأة الفلسطينية الثوب الملون أو الأسود الطويل الذى يغطى كامل جسدها والمطرز بالخيوط الذهبية على شكل أزهار وورود، يختلف من منطقة لأخرى، أى ما بين المناطق الجبلية أو البادية أو الساحل.

لم أخجل من جدّي، وسألته عن لباس العروس الفلسطينية، فقد أثارت حفيظتى زغرودة انبعث صداها من إحدى البيوت المجاورة لبيتنا، وقبل أن يكمل كلامه تركته مقبّلة جبينه قائلة له:

- دعك من سؤالى هذا، سأذهب إلى عرس جارتنا ومنها أعرف لباسها، ابتسم فى وجهى وهو يتوعدنى بعكازه.

لم أذهب إلى بيتها، بل صعدت إلى السطح العلوي، ومنه رأيت الحفل، أختلس النظر من بعيد، العروس بزيها الحريرى وألوانه الزاهية وبغطاء الرأس المرصع بخيوط ذهبية أو فضية ترقص تحت وقع التصفيقات والزغاريد والمواويل الفلسطينية القديمة التى تردّدها الحناجر جماعة:

...ايويهَا....ايويهَا ... ايويهَا...

العروس الفاتنة بثوبها الفلسطينى الأحمر المطرز تحمل الصينية المرشوشة بالورود، ووسطها طبق الحناء والشموع، ترقص رقصة جميلة فى حلقة الحاضرات، ثم توزع بعض الحلويات عليهن.

وأنا أستمع إلى صخب العرس الجنائزي، كان الفرح بهيجا وسط حزن مهيب يعلو محيا الحضور، فالبارحة اعتقل العساكر ابن الجيران "محمد الحازمي" شاب فى مقتبل العمر، يقال أنه كان يحرض على الفوضى والتنظيم السياسى وينتمى للثوار، وقبلها بليلتين اغتيل عمى أبو يونس الجبيلى أمام دكانه الصغير الذى كان يبيع فيه الخضر والحلويات للأطفال لأنه تطاول على فرقة عسكرية كانت تتفقد المكان وتستفز المارة وتعاكس شابات الحى وتركل الصغار.

ومضت الأيام .....

مضت الأيام يا وجعى وأمى تربى أطفالها فى العراء، وأبى يمارس شحذ سكينه أمام عيوننا لحين العودة، مازال المفتاح فى خاصرة أبى معلقا فى لباس القمباز، وأنا أشرب قهوتى وأتنبـأ بموعد القتال وألتقط

بضعة أحجار وأكوِّمها أمامي، أرجم بها الشيطان سارق طفولتي.

أرقب السماء باكية، أرقب غيمات سوداء حبلى تستحى أن تمطر وتفسد الفرح والناس فى العراء، أن تسرق منهم لحظات الطمأنينة والفرح المدفون.

ما أعرفه عن عمى أبو يونس الجبيلى تقديرا لشيبته أنه

هجّر من قريته الناصرة، المدينة المقدسة بحسب الإنجيل، وأن الملاك جبرائيل بشّر فيها مريم العذراء بولادة يسوع المسيح، هجّر عمى أبو يونس الجبيلى كما هُجر صديق الطفولة ناجى العلى إلى مخيّم عين الحلوة بجنوب لبنان.

عمى أبو يونس الجبيلى زوجته ميّمنة يرقد فى بطنها جنين التهجير، وحينما وضعت جنينها، سُميت الطفلة البهية بهاجر حتى يبقى فى الذاكرة، كانت أولى ابتساماتها وبكائها فى خيمة خاوية، تحت حرها وقرها ووجعها وفرحها.

كبُـرت هاجر وتزوجت فى قرية دير ياسين بابن عمها اسحاق عبد الستار، وأنجبت صبية جميلة أسمتها مريم، وهى التى كانت تنتظر صبيا فيردّ عليها قائلا:

- كل الذى يأتى من عند الله مليح.

وبعد ستّ سنوات من المعاناة الصحية والخوف والرعب، عادت العائلة الصغيرة هاربة من قرية دير ياسين إلى مخيّم عين الحلوة، ورزقت بطفل جميل أسمته على بركة الله ياسين تيمنا بالشيخ ياسين.

لكن شاءت الأقدار أن تخطف أرواحهم إثر قصف جوي، ولم يبق منهم غير الطفل ياسين، فهناك من يقول أنه مات، ومنهم من يقول أنه مازال على قيد الحياة وهو مع مربيته المجنونة والتى اختفت عن الأنظار منذ ذلك الحين.

كنت كلما أنظر إلى السماء أتذكر حكاية هذا و ذاك، وكلما أتمعن فى الأجواء أرى خيوط الدخان تراقص الغيمات وتلتف حولها، ثم تناهت إلى سمعى من بعيد صفارات الإنذار المفزعة.

رعب دائم وحالة ترقب دائمة، وأخريات يشتركن فى الفرح والبكاء والغيمات حبلى بزخات مطر قوية تأبى أن تغسل بها حناء العروس فى ليلتها المباركة.

مضت الأيام والقمر لم يكتمل بعد، وسجّادتى تدعونى للصلاة والسؤال، للحظات تبتسم فيها هالة النور، تمتد وتمتد وتجذبنى للبحث عن طوق للنجاة، أعاود السقوط ثم النهوض وهكذا، ثم تمضى الأيام.

استعدت توازنى بارتشافى شايا أخضر وقطعة من الحلوى المطلية بالشكولاطة كما تعوّدت مع أندريا كل صباح عند المقهى المجاور لحيّنا، نبدأ يومنا بحلوته المعسلة وعطر الشكولاطة.

وتمضى الأيام حيث استوى حلمنا الطفولي، تدغدغنا النشوة بيوم جديد وروح متجددة وبداخلى قلب طفلة صغيرة تضم الأرض والسماء وحارتها الصغيرة وبيتها الجميل وأبناء الجيران، وقلق الشوارع وروائح المدينة وأراوحها، وذاكـرة ثكلى تتحسس الزفرات الموجعة من حين

لآخـر.

كان اليوم ينذر بقدوم عاصفة هوجاء ومع المساء تلبّدت السماء بالغيوم وبدأت تمطر قليلا ثم اشتدّت العاصفة ليلا وهى تضرب سعفات النخيل بقوة وكأنها تتمايل فى دلاّل وتتساقط عذوقها الرطبة العسلية على بساط أخضر.

ابتسمتُ وأنا أرمقها من نافذتى بكل حنّان لأن سعادة البلابل ستكون كبيرة بعد هدوء العاصفة حين تقبل على حبّاتها الحلوة، وفى نفس الوقت رثيت لحال النخلة التى أوجعتها العاصفة فرقصت كالطير المذبوح، وأنا مزهوة بتغريدة طائر الحسون إلى جانبي.

سقطت عراجينها التى كانت تتزين بها مزهوة وقد قبض الرعب على نفسى وانزويت فى ركن البيت بعدما غلقت الأبواب والنوافذ وأشعلت الأنوار وزدت من دفء الغرفة وقد شعرت أن البرد ألبس مفاصلي، وكتمت أسرارى بداخلى مهابة أن أكلم نفسى فتفضحنى ابتسامة هاربة من زمن الذكريات، ورميت جسدى على سرير الذكريات وقلت هيت لك أيها الحلم...

بطاقــة هويــة[1]

ما قلته فى حلمى وما كان سرى يردّده دون أن أخبر به أحدا أننى أحبه كثيرا كثيرا...

أندريـا أبيض البشـرة، له عينان زرقاوان وصغيرتان وغائرتان فى المحجرين، وحاجبان ناعمان يوحيان بالكبرياء والغبطة والعناد، وعلى جانب حاجبه الأيسر شامة صغيرة، ذو قامة طويلة وعضلات مفتولة، رقبته الطويلة يغطيها دائما بوشاح يتماشى مع الجاكيت البنى الذى لا يمتد إلى أسفل الخصر، حرصه الشديد على أناقـة تميزه عن الآخرين زادت فى وسامته وثقته بنفسه أثرت على الأقرباء منه.

كان أكثر جاذبيـة للفتيات فى الضيعة، لم تكن له إطلالة شاب عاد متعب من ضنك العيش ولا يحمل بداخله هموم وطن جريح مثلنا، بل شاب يدافع عن وطنه الذى خيّل إليه أو توهمه والده بنيامين.

أندريا صحفى مميز، لكنه لا يشبه غسان ابن عمى العكّاوى الذى ذاق مرارة النزوح والاغتراب والجوع والمرض وأخذ على عاتقه نضال التحرر والمقاومة والوجع.

أندريا له ملامح الجاذبية يسحر بها النساء، محبوب، مثالى يسعى للتميز فى عمله والاستقلالية فى حياته، ويشعر بالاحباط إذا ما عاكسته الظروف لأنه لم يتعود على ذلك وهو ابن أوليفيا البريطانية..

١- بطاقة هوية، محمود درويش.

كان لا يستسلم للفشل، شديد الجاذبية، حساس ومتسامح.. أندريا من يهود بريطانيا الذين وعدوا بالوطن الأم، كان لا يشبه أباه بنيامين فى شيء ولا ملامح أمه.

أذكر من طفولتى معه أننا كنا صغارا نلعب فى الحى معا، وكنت أكن له مكانة خاصة فى قلبي، كان يأتى بحبات الحلوى ويوزعها علينا، كانت ملابسه جميلة ونظيفة، وعيناه يشع منهما لون البحر، كان كلما ينظر إليَّ أحدق فى عينيه كثيرا، ومن شدّة زرقتهما أحسب أنه لا ينظر نحوي.

أحبّه كثيرا ولست أدرى لماذا، حنين غريب يشدّنى إليه بقوة.....

كان أبى يرفض أن ألعب معه، ولأننى كنت صغيرة لا أفهم منعه لي، كانت أمى تقول لى دائما وهى تشدّ على أذنى برفق:

ـ لا تقتربى منه، إنه غريب الديار؟

فأجيبها وأنا أبكى قائلة:

ـ ماذا فعل لك، إنه صغير مثلي؟!

ترد عليَّ وهى غاضبة:

قلت لك لاشيء، ولكن هم ليسوا أهلنا ولا نعرفهم.

بقيتُ واقفة أمامها مبهوتة، وهى تروح وتجيء وتتمتم بكلام غير مفهوم....وهكذا كل يوم.

أندريا كان يبحث عنى من بين وجوه الأطفال، ومرات يبقى ينتظرنى حينما أقطع الشارع المقابل لحيّنا وشراء بعض الحاجيات، نبقى نلعب

ونلهو ونضحك.

ذات يوم نسيت العودة إلى البيت بسرعة، ونسيت الخبز عند عمى اليوسفي.

ولمَّا عدت وبّختنى أمى كثيرا، وفهمَت أننى كنت ألعب مع أندريا ابن أوليفيا البريطانية.

تذكرت الشاطئ وصيد الحلزون وأوليفر ولؤلؤ عكّا الجميلة، وتذكرت البحر واللعب على الرمل وبناء القصور الوهمية واللعب بالماء، وتذكرت أشياء كثيرة طواها التهجير فى محرابه كما قصور الرمل التى غمرها البحر فى جوفه.

وعدت بطفولتى وبحلمى الجميل إلى حضن أبى سالم فى المزرعة وتحت زقزقات العصافير وعصفورى طائر المحنا أو الحسون وخبز التنور الشهى الذى كانت تعده أمى وتذكرت أحاديثه مع جدى اليعقوبي، وأحاديثه ذات صباح مكفهر عن ذاكراتنا ومجدنا ولسانه يرطب بالدعاء والاستغفار منذ ساعات الصباح الأولى، وتزاحمت نظراتنا نحوه تفرش على ملامحه إشراقة الحلم الجميل والماضى التليد.

كان أبى يتحدث عن المعارك التاريخية مستعرضا الأبطال والبطولات والحروب والدموع والحق والباطل والشتات والوطن الموعود.

وكان يتحدث عن صلاح الدين الأيوبى وعن بسالته وعن تواضعه وسماحته وعن تسامحه ومعاملته الإنسانية لأعدائه.

ومازال جدّى اليعقوبى يذكّره بسيدى بومدين الأندلسى التلمسانى

الذى شاركه فى معركة حطين الشهيرة ضد جيش الصليبيين بقيادة قلب الأسد ريتشارد تاركا ذراعه مدفونة فى أرض الشهداء.

وإذا بى أرى أبى المهزوم الذى هزمته رجولته أمام مفتاح العودة وقد اتكأ على كرسى التعاليم يدرس آخر ما تبقى من انهزامه، يعلم الطاعة المسلوبة ويرسم المعالم المرفوضة ويعلمنا التاريخ العظيم، ووصايا أعدت أكفانا لنا، يجتث من جذورنا انكسارات دفينة مازلنا نتجرع وجعها حتى اليوم.

مازال طويلا أن يظفر أبى من قهرنا تيجانا مرصعة بلآلئ الحبّ، فلقد أخذها معه حينما دخل الغرفة المظلمة وشاخ فيها للأبد.....

وكان.. وكان....

ومازلت أتذكر الحجاج بن يوسف الثَقفي.

لست أدرى لماذا؟

لكن، كلما كان يتحدث أبى عن صلاح الدين يقف قبالتى هذا الرَّجل اليوم بقسوته وجبروته وصوفيته وهيبته، وهو يتحدث عن الماضي، تمر بمخيلتى هذه الشخصية الأسطورية التى سكنت العقول وملأت صفحات الكتب وشغلت الناس حكاياته.

كنت أريد أن أكون كالحجاج بن يوسف الثقفي، كتلة من الدم القانى وقسوة من الوحشية ما ترعد له السماء وتقشعر له الأبدان، سبقت شفرة سيفه اسمه، سحنة لا تعرف الرحمة أو الشفقة، صوت الرحمة يخنق فى خلده، لكنه ظل كبيرا فى التاريخ وهو القائل:

- "إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها، والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى".

الحجاج بن يوسف الثقفى تشفع له عطاياه والمدن التى شيّدها وضربه للنقود بالعربية وكثرة تلاوته للقرآن الكريم.

والحجاج بن يوسف الثقفى أشباح موتاه تطارده خلف مرايا التاريخ وتسائله إلى يومنا هذا:

- هل أنت ظالم أم مظلوم، أم سفاك للدماء أم رحيم بها؟

يا كليب هل تغفر يمناك ما أفسدت به آخرتك، وتمجد يسراك ما شيّدت به دنياك...؟"

أين أنت يا حجاج لتمسح دمعنا وتكسر انهزامنا وتفك قيود الأسرى فى السجون، وتخرجنى من لحظتى الخرساء وتعيد أبى وأمى وأخى صابر من تحت الركام، تعيد لى الماضى الذى كان يتحدث عنه أبى وجدّى اليعقوبى بكل فخر واعتزاز.

مسكين أندريا ومسكينة أنا، هكذا كنا ننظر إلى بعضنا البعض.. مسكين أندريا لأنه يهودي، ومسكينة أنا لأننى فلسطينية بلا أرض، مسكين لأنه أحبنى ونسى للحظة أن أهله اغتصبوا أرضى وسكنوا فى ضفتها وأكلوا من زيتونتها وشربوا من ماء وادينا.

ومسكينة أنا التى عرفت أنه ليس منا وليس من تربتنا، وأنه من أصول أباحت عرضنا ودمنا وأرضنا، ومسكينة أنا التى كنت أفضله على جميع الأطفال فى حيّنا.

مسكينة أنا لأننى أحببته ولعبت معه وأكلت حبات حلوته التى كان يخبؤها فى جيب سترته.

مسكينة أنا التى كنت ألهو معه فيوبّخنى أبى وتحذرنى أمي، مسكينة ومسكين...

مسكين لأنه تجرأ أهله يوما أن يناموا على تراب وطني، ومسكينة أنا لأننى لن أنسى أبدا أنها أرضى أنا وزيتونتى أنا وشمسى أنا وضفتى أنا..

أندريا هو ..هو.. وأيلول هى أنا.. وما بينهما أرض لا تتجزأ وذراع مقطوعة بسوار فى المعصم .

ومازلت أنا، تحاصرنى الأنغام الفيروزية فى كل مكان، تطاردنى نغماتها بكثير من الشجن، أراقصها بألم دفين وقهوة سوداء من دون سكر، مشحونة بتوترى وقلقى واضطرابي، وقد كان المطر ينزل بغزارة ونحن أكوام لحم مرمية فى عراء المخيّمات الباردة، يكتبنى كقصيدة دامعة على قلوب الضعفاء والحيارى، يسقى ينابيع الظمأ، يهدهدنى على أرض جرداء، سرق من وجهها زينتها وألقها.

وكلما حاولت أن أنسى حزنى خلف سجنى المأفون، يأتى صوت أمى من بعيد يذكرنى كلاجئة فى العيد[٢] بلحظتى الخرساء.

"واليوم، ماذا غير قصة بؤسكن وعارها؟

لا الدار دارٌ، لا، ولا كالأمس، هذا العيد عيدُ

٢- فدوى طوقان.

هل يعرف الأعياد أو أفراحها روحٌ طريد
عان، تقلّبه الحياة على الجحيم قفارها؟"

ومازال صوت فيروز يرنّ فى مسمعى وهى تغني... سنعود... سنعود...

سنعود لضيعتنا ولحقولنا ولطفولتنا، لصوتنا المبحوح على المآذن والمصلوب على المعابد، سنعود كحمائم العشاق لجنائن الهديل ولأعراسنا ولألحاننا الحزينة ومواويلنا وأهازيجنا.

وتذكرت قريبة أمى غادة حينما تقول:

."إن الذاكرة والألم توأمان، لا تستطيع قتل الألم دون سحق الذاكرة.."

ولكننى لم أستطع، ذاكرتى ياغادة هى كل آلامى التى أعود إليها من حين لآخر.

كنت أقول لأندريا سجل بطاقة هوية، سجل أننا سنعود، على صفحات جريدتك، وأنا أرفع رأسى إلى الطائرات التى كانت تحوم فوق رؤوسنا.

سنعود تحت قصف الطائرات ودويّ المدافع، هذه الطائرات هى من نسفت بيوتنا ودمرت قرانا وشردت عائلاتنا وأحرقتهم تحت الأنقاض، وبنت لنا بيوتا فى الملاجئ ومخيّمات فى العراء، هذه الطائرات هى التى أفزعت صغارا وأفجعت ثكالى، هذه الطائرات أقلقت راحتنا وزرعت الرعب فينا وأفقدت الأهالى الطمأنينة والسكينة وهذه..

وهذه.. فسجل أنا عربي:

سجِّل! أنا عربى

ورقمُ بطاقتى خمسونَ ألفْ

وأطفالى ثمانيةٌ

وتاسعهُم.. سيأتى بعدَ صيفْ!

فهلْ تغضبْ؟

سجِّلْ!

أنا عربى

وأعملُ مع رفاقِ الكدحِ فى محجرْ

وأطفالى ثمانيةٌ

أسلُّ لهمْ رغيفَ الخبزِ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخرِ

ولا أتوسَّلُ الصدقاتِ من بابكْ

ولا أصغرْ

أمامَ بلاطِ أعتابكْ

فهل تغضبْ؟

سجل

أنا عربى

أنا اسم بلا لقبِ

صبورٌ فى بلادٍ كلُّ ما فيها
يعيشُ بفورةِ الغضبِ
جذوري...
قبلَ ميلادِ الزمانِ رستْ
وقبلَ تفتّحِ الحقبِ
وقبلَ السّروِ والزيتونِ
.. وقبلَ ترعرعِ العشبِ
أبي.. من أسرةِ المحراثِ
لا من سادةٍ نجبِ
وجدّى كانَ فلاحاً
بلا حسبٍ.. ولا نسبِ!
يعلّمنى شموخَ الشمسِ قبلَ قراءةِ الكتبِ
وبيتى كوخُ ناطورٍ
منَ الأعوادِ والقصبِ
فهل ترضيكَ منزلتي؟
أنا اسم بلا لقبِ
سجل
أنا عربى
ولونُ الشعرِ.. فحميٌّ
ولونُ العينِ.. بنيٌّ

وميزاتي:
على رأسى عقالٌ فوقَ كوفيّه
وكفّى صلبةٌ كالصخرِ
تخمشُ من يلامسَها
وعنواني:
أنا من قريةٍ عزلاءَ منسيّهْ
شوارعُها بلا أسماء
وكلُّ رجالها فى الحقلِ والمحجرْ
فهل تغضبْ؟
سجِّل
أنا عربى
سلبتَ كرومَ أجدادى
وأرضاً كنتُ أفلحُها
أنا وجميعُ أولادى
ولم تتركْ لنا.. ولكلٍّ أحفادى
سوى هذى الصخورِ..
فهل ستأخذُها
حكومتكمْ.. كما قيلا؟
إذن
سجِّل.. برأسِ الصفحةِ الأولى

أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد
ولكنّي.. إذا ما جعتُ
آكلُ لحمَ مغتصبى
حذارِ.. حذارِ.. من جوعى
ومن غضبي.

وجـع الانتماء

فى غفلة من الزمن التقيت بأندريا، وفى يوم عاصف وبارد انفلتت خيوط شمس باهتة من سحب متراكمة فى الأفق تضيء ملامح وجوهنا المتعبة، والتى لم نحاول تجنبها لكى تشعرنا بالدفء، كنا نقف فوق ربوة مطلة على المدينة الحزينة، بعدما صافحنى بحرارة، جُلت ببصرى إلى الأمكنة البعيدة وقد لمع من عيونى بريق دمع أبى إلاّ أن ينزل.

حاول أندريا أن يمسحه بيده لكنى صدّيته بابتسامة باردة، أندريا جاء لزيارتى وربما لتوديعى فى المخيّم بعين الحلوة، لا أدري؟ ولكنه كان يبدو قلقا، شيء ما يدور فى خلده، كان متعبا يظهر على ملامحه التجهم والغضب، ذكر لى أن والده بنيامين قال له:

ـ غدا ستدخل الجيش يا أندريا، أنا سعيد وفخور بك لأنك ستدافع عن وطنك !!

لم يفاجئنى ذلك، لأن قلقه وحزنه كان أكبر من هذا، ومع ذلك تغاضيت عن الأمر وقلت له:

ـ وماذا عن أمك أوليفيا؟

ردّ أندريا وهو مطأطئ الرأس:

ـ أمى أوليفيا تبتسم كالعادة !!

وبابتسامة ماكرة منى أردفت:

ـ وأنتَ، ماهو شعورك؟

أدرك ما أعني، كان يبدو عليه التأثر وشعور بالضيق، وربما لأننى شدّدت عليه فى الموضوع، ردّ بغضب:

- بقيتُ مذهولا فى مكانى وسلبى اتجاه قرارته!!

تصورى أنها كانت الفرحة الأولى لأبى بنيامين والطعنة الثانية لى أن أدخل الجيش النظامى لأدافع عن الوطن الموعود الذى تربيت على حلمه يا أيلول.

لم تكن هذه المرة ككل المرات السابقة التى يأتى فيها أندريا لزيارتي، كان مهموما وخائر القوى، ومع ذلك حاول الاقتراب مني، لقد اقترب منى أكثر، تراجعت إلى الوراء، ثم اقترب مـرة ثانية، وفى المرة الثالثة لم أتراجع إلى الخلف، بقيت مكانى وعيناى تحدق فى عينيه بدفء كبير، استشعرت ذلك وهو يدنو مني، شدّنى من ذراعى بقوة، احتضننى بين ذراعيه، اقتربت شفتاه مني، لكننى انسحبت فجأة بعدما لاحت أمامى صورة أمى بذراع مقطوعة وسوار فى المعصم؟؟؟

كم تمنيت أن يضمنى بقوة ولو للحظة أُسْكِن فيها كل ألامى وخراب المدن التى تلاحقني، لكن تركته واقفا وانصرفتُ، وبقى هو يتتبع خطواتى المثقلة لبرهة، يلحظنى بعينيه حتى بَعُدْت واختفيت عنه بولوجى الخيمة البـاردة.....

تبا للحرب التى سرقت أحلامنا الصغرى والكبرى، سرقت شدو الطير ولون الأرض والسماء الزرقاء ولهفة العشاق وغيرة الحبّ المشتعلة بين الأحبة، تبا للحرب التى لم تترك لى لحظة أمان فى حضنه.

الحرب منحتنى البكاء والألم وأحرقت فى جوفها ابتساماتى وقبلاتى لأيامى الجميلة التى ولّت فى زحمة أيامى الجنائزية، وحدها الحرب تركتنى أعانق الليالى الباردة وأحضن الفراغ بعدما أفقدتنى كل شيء.

تركتنى أيلول وانصرفت، حاولت أن أخبرها عن حقيقتى لكننى كتمت ذلك فى نفسى وأنا أعض أصابعى ندما، ومرت الساعات بسرعة، وبوجهه المتجهِّم يبسط الليل رداءه الأسود على المدينة، وبتُّ ليلتها مضطربا تنهش دواخلى الهموم والوساوس، وفى الصباح الباكر حزمت حقيبتى وتوجهت إلى المعسكر دون تردّد.

تَمُرُّ الأيّام واللّيالى ثقيلة، مُتعِبة، تتعاقب فيها الأحداث الوخيمة وتنقطع أخبار أيلول عني، أحاول التكيف مع حياتى الجديدة فى المعسكر، لكن دون جدوى.

مرّت بى أيّام عصيبة، الجو بارد فى الليل، وأثناء حراستى كنت أنام رغم تعليمات الحذر واليقظة، كانت العيون فى العراء تترصد كل خطأ أو غفوة منا، هذا ما كنت أحسه وأعرفه أو تعلمته من تلك التعليمات الصارمة التى كانت تحذرنا من النوم.

والتعليمات تقول كل حركة من حولنا علينا أن نطلق النار، نطلق النار على المقاومين، وصفارات الإنذار تدوى فى كل مكان تعلن التأهب.

وفى إحدى الإشتباكات وأثناء مداهمة أحد البيوت التى كان يشك باختباء المقاومين فيها، لم أستجب للتعليمات أو بالأحرى للخطة

المرسومة، فقد كانت يداى مكبلتين والضغط على الزناد يشعرنى بالرعشة وحنين مشترك يشدّنى إليهم.

كنت أقول:

- لا أستطيع ..لا أستطيع ..

لا أعرف لماذا؟

والضابط يغضب ويزمجر ويتوعد بتشديد العقوبة قائلا:

- ستبقى فى الزنزانة وحيدا لا ترى النور.

- سأرسل بك إلى طبيب نفساني...سـ...سـ...

وبقى فى سمعى حرف يتردّد سـ...سـ ، بينما جثوت على ركبتى مهزوما وقد غلبتنى الدموع ولم أستطع أن أوجه بندقيتى فى وجه شاب فلسطينى أو أضربه كما يفعل الجنود، واستمر معى الحال لشهور عدة.

وبين الرفض والوعيد واللامبالاة انتفض فى وجهى أحد الضباط وانقلب إلى وحش كاسر يضربنى ببندقيته على كتفى وعلق بكلمات فيها الكثير من الوعيد.

تدخل أحدهم لتهدئته وأُخذت إلى غرفة الطبيب للكشف عن قواى العقلية والنفسية.

بصراحة، وفى قرارة نفسى كنت أحس بالسعادة والنشوة، وما أحدثته ردة فعلى قد تخرجنى من المعسكر نهائيا.

حُوِّلت على مركز التحقيقات ودخلت فى دوامة السؤال والجواب والكشف الطبى على قدراتى العقلية والنفسية، وما كان منهم إلّا أن

قدموا لى شهادة مريض نفسي.

خرجت من الجيش بجسد محطم وعقل مشلول ونفسية مضطربة، عدت إلى أمى أوليفيا التى انهارت لحالي، أما أبى بنيامين فلم يكترث لحالي، كل ما قاله لى وهو يرمى بسجارته على الأرض ويدحسها برجله، وكأنه يرمى جام غضبه فيها وبلهجة الواثق من نفسه:

ـ أنتَ شاب قويّ وعليك أن تدافع عن وطنك.

أما أمى أوليفيا فبقيت إلى جانبى تخفف عنى وجعى ولم تنطق بكلمة.

كنتُ أنظر إليها بحزن كبير وهى تبتلع ريقها بصعوبة وقد لزِمَت الصمت وملامح التوتر بادية على وجهها بل على كل جسدها ثم انصرفت.

حاولت أن أسألها عن حقيقتى ومن أكون؟ لكن أعماقى ابتلعت سؤالى وهى تنظر إليَّ بحنو وشفقة.

بقيت صورة الشابة المجنونة تطاردنى كأشباح الليل تردّد أننى لست ابن بنيامين وأمى أوليفيا.

فى حلمى كانت غرفتى باردة وأنا أبحث فيها عن رغيف خبز وكأس شاي، أبحث عن أمى أوليفيا، لكن تراءت لى وجوه كثيرة ولم أعرف وجهها من بين الوجوه، فقط قهقهات أبى بنيامين تزيحها من أمامى وتردّد بقوة:

ـ أنتَ ابن ..

- أنتَ ابن الوطن الموعود..

كنتُ محموما وباردا ومفزوعا ومشحونا ومنهارا، ولم أعد أدرى من أكون أنا؟

بالأمس كان...

كان البرد وريح صرصر تراود الأمكنة عن نفسها، تعريها ثم تحضنها، تجوب ببقايا أشباح وتختفى بصوتها وراء كل التفاصيل التى تركتها الأشباح فى مخيلتي.

كانت الأشياء من حولى تبعث على الطمأنينة فى أسرتى وتبعث على القلق النفسى بداخلى وفى شوارع يافا وفى كل مكان.

قوة المشاعر أو ضعفها أو درجة اليقين كانت صفات تلازمني، كنت أميل كثيرا إلى أمى أوليفيا ولم يكن هناك صراع بينى وبين أبى بنيامين.

عصبيته كانت تمنعنى من التقرب منه، أكذب على نفسى إن قلت أننى لم أكن أشعر بمشاعر الحبّ نحوه، لأنه لم يكن يهتم لرغباتى أو يحس بخوفى أو قلقي، نزعاته المضادة للمجتمع الآخر لم أكن أتقبلها بينى وبين نفسي، وحتى هو كان يشعر بذلك، عدائية أمقتها وأنا الفتى الوسيم والمدلّل عند أمى أوليفيـا.

كان يثور على السلطة إن ضعفت قبضتها الحديدية أو يستسلم لطغيانه اتجاههم، كأنه ينال العقاب على أفعاله فيهرب من تحمل مسؤوليته بعدوانية كعقاب لنا وخاصة أنا.

كل هذه الشحنات المكبوتة والرغبات المفقودة كانت نتيجة أفكار عدوانية يرغب فى ايصالها لى بطريقة أو بأخرى.

كان يتحدث لى كثيرا عن الوطن وعن الالتزام الداخلى تجاهه، وكانت أمى تقف حائلا بينى وبينه بابتكارها مواقف انسانية لأشخاص حقيقيين.

كنتُ أحس انفصالهما الفكرى والنفسى وميل سياسى عند أبى بنيامين تعكسه مواقفه العدائية التى لم تتغير منذ أن أصبحت أعى الصراع القائم فى المنطقة.

كانت دوافع أبى بنيامين التى يعبر بها علانية تتطابق والوضع الاجتماعي، وتَرَدُد وقلق أمى أوليفيا من عدم استجابتها لذلك يُظهر صعوبة كبيرة فى تحقيق أهدافه الحيوية على ذاتي.

الذات الطفولية ثم الذات الشابة الواعية تتداعى معها الأفكار وتسقطها للكشف على الجوانب الخفية والمتنازع عليها من طرفهما كل يوم.

انخفاض استجابتى وفتور علاقتى زاد فى غرابتى وتغير أسلوب تقبلى لها، ومن ثمة انهيار وجدانى وبنيانى العقلي، وانهيار اتصالى بينهما وكذا انزوائى عن العالم بانتقادات يرفضها والدى وصمت أمى أوليفيا أمامها عززا ابتعادى أكثر فأكثر.

كل شيء أمامى كان غامضا وأيلول هى الفتاة الوحيدة التى كنت أجد نفسى معها، والقهر الداخلى الذى أعانيه يصعب معه التنسيق بين

التفاصيـل والصورة التى تتسم بالحيرة والإضطراب.

بداخلى كنت أشبه تفاصيل المكان الذى تتواجد به أيلـول والخواء الذى يسكننى كلما أتخطى عتبة الحى الراقى الذى نستوطنه وكل شيء أمامى بهيم. وكأننى أبحث عن طوق للنجاة بعدما اشتكيت من وحدتي، بينما آخرون ليسوا مثلى يبحثون عن ملاجئ فى القلوب.

كنت كطفل يركض خلف الأشياء التى تثير حواسه وكشاب يركض خلف سراب أحلامهن، حينما وقفت ذات يوم من شهر أيلول وسط الزحام استوقفتنى شابة جميلة، شدّتنى من ذراعى وهى تومئ لى برأسها المثقل بكومة من الملابس الملونة، تبتسم تارة وترتعب تارة أخرى إذا ما لاحظت توتري.

كانت الشابة تبدو فى الأربعين من عمرها، سحنتها بيضاء لكنها ملطخة بسواد يشبه الفحم القديم، أثوابها مهترئة ونعلها ممزق تخرج منه أصابع قدمها اليسرى.

فى البداية أشفقت عليها ورثيت لحالها وتحركت مشاعر العطف بداخلى نحوها، ثم مدّدت يدى نحو جيبى أقدم لها بعض المال، فزعت منى وتراجعت إلى الخلف مذعورة وبقيت مكانى وسط الزحام تتلقفنى الأكتاف وتمعن النظر إليَّ الوجوه الحائرة والمتذمرة والمستفهمة والباسمة واللامبالية.

حينما مددت لها يديّ مبتسما عادت بخطوات متأنية نحوي، لم تأخذ ما قدمت لها وتركت يديّ ممدودتان حتى تعبتا ولم أشعر بذلك

لأن ما قالته لى أذهلنى وهى تهز رأسها متأتئة بكلام غير مفهوم:

- ...أ..أ..أنت ابن اسحاق عبد الستار..

تذكرته..نعم ..نعم..

- أنت ياسين.. الشامة على حاجبك.

فى البداية ذهلت ممّ قالته هذه المجنونة، ثم ردّدت عليها باسما:

- لا..لا..

قالت وكأنها متأكدة من قولها وبإلحاح شديد:

- عرفتك، أنت هو ياسين، الشامة على جبينك، أنت ياسين...

منذ كنت طفلا صغيرا وأنا ألعب معك، أحضّر لك حبات الحلوى المعسلة.

أنت هو، لقد كَبُرت وأصبحت شابا وسيما، مم ..مم..

استغربت كلامها وإلحاحها وحاولت أن أجاريها فى الكلام، وبقيت متسمرا فى مكانى والشابة الجميلة اختفت فى لمح البصر، نظرت من حولى أبحث عنها وكأنها غرقت فى البحر أو اختطفها الزحام من أمامى دون أن أفهم منها شيئا.

عدت إلى البيت أجرّ ذاتى وكأننى أحمل الجبال على كاهلى وصوت المرأة الشابة يطاردنى ويصمّ أذانى عن الأصوات التى تسلم عليّ فى الطريق ولسان حالى يردّد:

- من تكون ؟

- وكيف عرفت أننى أحب الحلوى المعسلة؟

- ومن هو إسحاق عبد الستار وياسين؟

- وما حكاية الشامة التى على حاجبى التى عرّفتها بي؟!

أسئلة كثيرة اجتاحت تفكيري، ومنذ ذلك الوقت وأنا أدور وأدور فى دوامة السؤال والجواب والبحث عنها وعن حقيقة ما قالته الفتاة المجنونة.

كل يوم كنت أذهب إلى نفس المكان أتفرس الوجوه لعلنى أجدها بين المارة، كل يوم أقف وجها لوجه أمام المرآة أحدّثها، كل يوم أسأل هذا وأصمت أمام آخر، ومرات أكاد أخبر أمى أوليفيا بما حدث معى ثم أغيب وراء صمتى وتعبى وأنسحب بمرارة.

غرفتى باردة تربطنى بها ذكريات الطعنات الأولى، وأنا أجرّ أوزار أثقال وأوجاع مهترئة حينما كنت أحاول أن أخيط لها أثناء نومى وسادة من الأحلام الجميلة التى تلاشت فى لمح البصر.

غرفتى باردة بعدما تركت ورائى أزرار قميص ممزق كان قد اشتراه لى أبى بنيامين وفرحة الدخول إلى الوطن الموعود.

ومن شدّة الفرح لبسته وبقيت أدور وأدور حول نفسى كطائر يحلق فى سماء الفرح، ومن شدّة فرحتى وسعادتى مرت أصابعى على أزراره البراقة فتناثرت من حولى وتطايرت على الأرض وأنا أرقبها مذهولا وأمى أوليفيا تحاول جمعها من مكان إلى مكان.

كان خيطها رفيعا وكان القميص باليا، ومن فرط فرحتى حسبته جديدا، أظن أنه كان عيدا وكان ألما وكان مجرد حلم بالعودة إلى

ضياعى من عائلتى التى سلبت منها وأنا طفل صغير، هذا ما عرفته بعد شهور طويلة وأنا أبحث عن المرأة المجنونة بعدما تعرفت على أهلها وأخبرونى حقيقة ما جرى.

قالت لى أمها ذات يوم:

ـ ابنتى لم تكن مجنونة، كانت عند أقاربنا عائلة اسحاق عبد الستار تربى ابنها ياسين، كانت مرعوبة من بشاعة المجازر الفظيعة بدير ياسين.

سألتها قائلا:

ـ لقد سمعت أن كل العائلة قد ماتت تحت وقع الغارات.

ردّت وهى تبكى وتتوعد الجيش الإسرائيلي:

ـ نعم أختى وزوجها ماتوا، لكن ابنها الصغير ياسين مازال حيا، كان عندى مع ابنتى ريتان، ولمّا عادت به إلى أهله وجدتهم أمواتا فانهارت أعصابها.

قلت متلهفا وداخلى يردّد.. حنين مشترك:

ـ والطفل الذى كانت تحمله يا خالة؟

ردّت مزمجرة:

ـ وما شأنُك أنتَ!

مرة ثانية قلت لها متلهفا:

ـ أرجوك يا خالة أخبريني، أين هو؟

بكت المرأة أمامى بحرقة شديدة، ثم قالت لى متجهمة:

- لقد أخذته فرقة من الجنود الإسرائيلين من بين يديّ ريتان ومن ثمة ابنتى على هذا الحال.

تركت الخالة المتألمة وخرجت من عندها مهزوما، وأنا أجرّ ذاتى المنكسرة، أود أن أخبرها أننى هو الطفل ياسين ابن أختها وأرتمى فى أحضانها، ولكن بلعت الحقيقة المرة بداخلي، اسودّت الدنيا فى عينى وبقى الشك يلازمنى فى مشوار حياتى القادمة.

ومنذ فجر الصباح وأعصابى مطحونة كالقمح فى الرحى، وعلامات التذمر من كل شيء ترهبنى وقدرتى على الاحتمال تلاشت.

الأرض التى أستوطنها معتمة، والإبتسامات من حولى مفخخة، وبأعصاب باردة أعيش قلقى وأقتات من قلقى وأجزع من خوفى الذى يطاردنى تحت قبعتى الصغيرة التى أضعها على رأسى لتصنع من حولى رهبة مزيفة تخفى انهزامي، وخوف يلازمنى كلّما أسمع صفارات الانذار معلنة لحظات القلق وتوتر الأعصاب والهروب إلى المخابئ كالفئران المرعوبة.

وما كادت ركبتاى تحملانى حتى توقفت صفارات الإنذار وعادت الإبتسامات المفخخة ترسم حروفها على وجوه مصفرة من الوجل.

وأنا لا أذكر إلاّ أيلول من قلقى ودموع الخالة من وجعى ومن طفولتى ومن سترة العار التى تدفئني، كانت الأشواق إليها تسبقني، تتراقص من عينى وتدنو من قمر وجنتيها، ويمتد سهرى وحيدا أناجى الليل والهوى وتمر أيلول أمامى كالغمام لا تروى عطشى وكأنى بها تقول لي:

ـ أندريا ..لا تثق بالأمنيات فالروح قد ماتت وانتحرت على ركام أسود.

وفى الصباح الباكر حزمت حقائب الترحال ورحلت بعيدا دون أن أودع أحدا، أحمل فى قلبى أيلول، وأنا أبحث بداخلى عن شيء يعيد لى الطمأنينة ويعيد لى لعبة الدفء والحنين والإشتياق لحياة ولّت عندما كنت صغيرا وحنين مشترك أتعبنى بين حاضرى وماضى وأنا أتوق لسلام يرفرف على حياتى القادمة....

الرحيـــــل...

تبَسمت فى وجهى نابلس وهى تسألنى قائلة:

ـ متى تسافرين إلى اسبانيا يا أيلول؟

نظرتُ إليها دون أن أردّ على سؤالها، وتوالت حيرتى فكلما أنوى الرحيل إلى غادة أجد نفسى أؤجل حقيبة السفر نحو اسبانيا وأعتذر بلطف للأيام الماضية، وصمت بداخلى يخفى ذاكرتى التى أشمّ فيها عبق الماضى وحنينى إلى أندريا يزداد يوما بعد يوم، وانقطاع أخباره زاد من توترى وقلقي.

وبدأت حياتى كلّها لحظات من العصيان، لم يكن من السهل التنبؤ بحياتى القادمة، ولكن نابلس ابنة جدى اليعقوبى كانت تنتشلنى من غياهب الجب وتبعث فى نفسى التفاؤل.

تنتشلنى من لحظتى الخرساء ورغبتها فى أن نلتحم ونعيد ترميم ذواتنا من خراب الآخر الذى دمرنا.

كانت تقول لى دائما وبصوتها الجَهْوَرِيِّ:

ـ عليكِ أن تكونى قوية، كفى نواحا وتذمرا.

عند غادة قد تتغير حياتك وسوف تلتقين بغسان ابن عمى العكّاوى وتتجدد يومياتك...

حاولت إقناعها بأننا أشلاء فوق الأرض، لكنها تستعيد تلك التفاصيل وبعض الأشياء بثقة وكبرياء الأرض، بصراحة كنتُ أفضِل

أن تزرع مساحات الودّ والمحبة والعطف على أرضى القاحلة، لا سيّما حينما تبدو أثـار الدهشة تتوزع على ملامح وجهى المصفر.

كانت نابلس تأخـذ ثقتها من ألمها والإصرار والتحدي، أما أنا فقد لبست آثار الألم وأعلنت الرحيل، وأثار قيود الضحية مغروزة فى أعماق الذاكرة وغياهب الروح المفجوعة.

كان لديّ الكثير لأقوله لها عن الحلم والوطن، لكن كنت حزينة ويائسة ورحل الكلام عنى مسافرا دون رجعة كما رحل صابر، أخى الصغير، وذاب بين شفاهى كما ذابت زجاجة حليبه بين شفتيه.

لقد جمعتنا الضيعة الخضراء، فكانت لنا مزارعنا الصغيرة ومشاتلنا المتناثرة ودجاجنا وكلبنا تيو، ولنا فؤوسنا ومحارثنا ولنا أيدينا المخشوشنة وقلوبنا الدافئة، ولنا تضاريسنا وهواؤنا وماؤنا وطيرنا وزهرنا وروحنا، ولنا عاداتنا وتقاليدنا ولنا مواويلنا الحزينة والمفرحة ولنا أعراسنا وأغانينا ولنا طعامنا ولنا خبزنا وأفراننا ولنا.. ولنا..

ولنا أرواحنا الصغيرة والمتجذّرة برائحة التربة التى خلقنا منها بألوان مختلفة كألوان الطيف.

وكان لى جدّ وأب وأم وإخوة وأعمام وأخوال وأبناؤهم وجيران وأحباب ولكنهم رحلوا، وبقيت فى الذاكرة وصية أمى التى كانت تقول لى دائما أن لها وراء هذه الضفة الأخرى قريبة تعيش فى دمشق ومتنقلة بين لندن وباريس وبيروت اسمها غادة، وهى تتصل بى من حين لآخر

كما يفعل غسان.

غادة جميلة جدا، ماتت أمها وهى صغيرة، لم تعرف وجهها ولم ترتوى من حليبها ولم تشبع من دفء حضنها ولم تسعد بصحبتها وهى شابة بقية عمرها، ورغم جراحها دائما فى الطليعة.

صمتت برهة ثم أردفت قائلة:

ـ غادة موجوعة يا بنيتي!

كانت دائما تتحدث عنها بحب وشوق، وكنت أحس أنها تودعنى بنبرة صوتها المخنوق كلّما تتحدث عن غادة.

وبقى لى جدّ ابيضت عيناه بعدما أقلقت راحته واضطربت سكينته وبقى وحيدا متكئا على عصاه يترقب عودة أبنائه إياد وزكريا وياسر من سجون إسرائيل.

وبقى مع جدّى ابنته الجميلة نابلس تلملم جراحه وجراحى وتعتنى بطائرى الحسون الذى مازالت ترنيمته تسكنني، أما أندريا فقد اختفى ولم ألتق به قبل الرحيل ومنذ أن وطئت قدماه المعسكر انقطعت كل أخباره.

دهشـــة اللقاء..

صدفة جميلة أن أراك هنا أيها القلم المناضل؟!

ردّ عليَّ بكثير من الهدوء والحميمية:

- فرصة سعيدة غـادة...

ابتسمت فى وجهه وعيناى تلاحق عيناه وقلت له:

- أنا الأسعد...

هزّ رأسه وعاود ذكر اسمى متقطعا:

- غـا...غـادة...!!

نطق اسمى بكثير من الودّ والإحترام والوجع وقد اندهشت لمعرفته لشخصي، لكن صديقى أبو المظفر أدرك استغرابى فتحدث باسما:

- لقد علمته بحضورك يا غادة.

ولأننى لا أتقن الصمت كانت عيناه قدري، دهشة هو اللقاء ودهشة ما بعد اللقاء، ودهشـة أن يشعل سيجارة ثانية فى وجهي.

كان يدخن بفتور وأسى، ومرات بغضب وقلق كلما تذكر القضية، هو لم ينس ليتذكر، هو يناقش ليتألم، احباط يتغلغل بداخله ثم يهزمه بتحد كبير، وهو الذى كان قد عاش زهرة عمره من أجلها.

رفع فنجان القهوة وتنهد بعمق ثم رشف منها رشفة ثانية وابتسم فى فتور، وداخله يردّد بهمس خفيف:

- لا تقع هذه الأمور مصادفة؟

نظرت إليه قائلة:

ـ عن أية أمور تتحدث!

ردّ باسما:

ـ لا شيء... لا شيء..

ابتسمت فى وجهه، ثم أشعل سيجارة ثالثة وهو يهزّ رأسه شاردا.

غسان رأيته رجلا لم تسبق لى رؤيته، نحيل الجسم، أسمر البشرة، أسود العينين، غزير الشارب، نظراته قلقة، مضطربة، حاقدة وثائرة، مصممة ومستفهمة، لا يطأطئ رأسه أثناء الحديث حتى لا يشعرنى بالهزيمة أو كأنه يشعرنى بالطمأنينة، ولا يطيل التحديق فى عيونى حتى لا أشعر بالإرتباك أو الحرج منه.

كان ينظر إليَّ وكأنه لا يراني، نظراته دائما إلى يساري، لا يقابلني، أحس فى نظرته تلك أنه يحاور صورا من الذاكرة، يستمع إليها ويتحدث معها.

كنت أراه مقطب الحاجبين مع ابتسامة خفيفة تزامنها زفرات عميقة رغم حرصه الشديد على إخفاء مشاعره، كنت أحاول أن أقرأ لغة جسده والبحث عن مواطن القوة والضعف واتجاهات أحاسيسه المبعثرة، وما يثير ذاكرته من أفكار تؤثر فى حياته اليومية وحتى النفسية، ومع ذلك كانت ابتساماته الخفيفة تكشف عن انسانية معذبة تحاول التخلص من الألـم.

كانت ابتسامته جميلة، يسرقها بسيطة من عيوننا ويرسمها على

محياه حزينة، وقد انبعث إلهام بداخلى بأنه ملك لي، أعجبنى خياله الواسع واشتبَهْت به كأنثى، فاعترضت مخيلتى صورة، بل صور ثم تلاشت بسرعة، كنت قد مزقتها فى ذاكرتين.

كان منتصب القامة يلبس معطفا أسود ويلف رقبته بوشاح أزرق، يومها كان للبرد والشتاء طقوسهما فى ذواتنا.

يحمل فى يده فنجان قهوة وفى اليد الأخرى سيجارة بين اصبعيه، التقت النظرات بيننا صادقة وخاطفة ومحتشمة وخفق القلب خفقات متسارعة، مال نحوى وأنفاسه المتقطعة توحى بانهيار داخلي، وضمنت الطمأنينة والسلام لروحى وكان ذاك إلى وقت قريب.

كانت الضحكات منتشية بالذكريات وبالتاريخ القديم وبالمصير المجهول، فساورنى قلق من أن يدق المجهول بابي.

ساد بيننا صمت يغلفه الأسى وارتسم على سحنة صديقه أبو المظفر النحاس وهو يقلب صفحات الجريدة ويُعد مقالة الأسبوع من توقيع صاحبه للنشر، وأنا مازلت غارقة فى الطمأنينة التى ظننتها أنها سكنت فؤادى ونامت إلى الأبد.

والتقت للمرة الثانية فى حركة لاإرادية عيناه بعيناى المركزتين فيه بانبهار، فانتبهت ونحت بوجهى إلى خصلة شعر متدلية أزيحها على جبينى بابتسامة خفيفة..

كان يشك فى كل شيء، فأيدى خصومه تتراءى له فى كل خطوة يخطوها، تدبر بخبث لإفشال القضية، ولم يشعر فى ما مضى بما يشعر

به الآن، ثم كظم غيظه وصمت فى رحاب التاريخ وقد تغيّرت أشياء كثيرة فى ذهنه، وبرزت معالم وتوصيات جديدة على القضية، هذا ما فهمته من كلامه.

ومضيت....

مضيت بخطى ثابتة وهادئة، ومازال غسان يرقب جسدى الملفوف فى فستان هفهاف يميل إلى الصفرة وهو شارد الذهن.

ثم هممت بالإنصراف على أمل لقاء جديد.

كان غسان يقول فى قرارة نفسه وهو يهمس إلى صديقه بحنو:

ـ هذا الوجه الجميل يذكرنى بطفولتى وبمدينتى وأعماقي، ضوء ما ينفذ إلى أعماق أعماقي.

هذا ما قاله لى صديقنا أبو المظفر النحاس عند لقائى به فى باريس، فقد كنت كثيرة الترحال من بلد إلى بلد أحمل وجعى بداخلى وكان هو كثير القلق عليَّ.

وتوالت اللقاءات بيننا فى أماكن مختلفة تشهد على أحلامنا الجميلة، نتبادل الرسائل كلما ابتعدنا عن بعضنا بسبب ظروف العمل، وكان فى هذه الرسائل لغة أخرى، لغة الأحلام والوجع والإنكسارات ولوعة الفراق.

أى غسان...

وأنا فى فراشى ألملم ذاتى المتكاسلة يأتينى صوتك الدافئ من بعيد، تزرع بهمسك شمسا بروحي، يدغدغ بوحك أغصان عمرى الملونة

بغمامات سماءات مثقلة بالوجع.

مازال دفء عطرك على شفتى بلسما خنته بانسحابى ولجراحى كلّما نسافر عبر زورق الحلم وأبقى انتظرك كزئبقة اغتسلت من كل الخطايا وتندّت بلهيب العشق الصادحة من أعماق حماقاتي.

كانت حلاوة العشق للوطن تمر معك بأقداح مضاءة فى ليل بهيج واعترافات موجعة تسافر مع النجوم والقمر، وأخرى عن ما يؤرقنا ويتعبنا، فلقد تعبت من الصبر وأنا أرى قسوة الحزن عليك وأحيانا أغرق فى تأملاتى دامعة وضاحكة.

لم يعد بوسعى أن أغسل احباطاتى وأنتَ فى المفترق بعد تهجير وضياع كعصفور جريح وقد ناءت عنك كل العصافير، رحلتْ وقت الهجير وبقيتَ وحدك المغترب فى البحر والطائرة والمكان تحمل حقائب الإغتراب ولوعتى بعدك.

وأنتَ ترحل عني، كنتُ حينها أجلس فى غرفتى أقرأ مواويل عشقى من وراء نافذة ضبابية، تطلّ خلفها أشعة شمس محتشمة، لم تحرك فى هذه الخيوط الذهبية دفئا ولم أرفع رأسى لرؤيتها، فالعصافير لم تزقزق خلف نافذتى هذا اليوم، ولا الأزهار قد ابتسمت فى مزهريتي.

وأنتَ ترحل عنى فى هدوء بارد، بعدما أضمرت لك فى قلبى معزة غلبت راحة فؤادى ولا أحسب أننى تاركة راحتى كى أشقى فى الحياة بعدك، أنك لن تعود أبدا، لا أعرف لماذا راودنى هذا الإحساس الغريب.

لكن، تخيلت أننا نمارس لعبة النرجسية على ضفة الغدير، فنعشق

أنفسنا دون أن نُقبل صورتنا فى الماء حتى لا نغرق وتنبت من حولنا أزهار النرجس وتبقى حكايتنا تُرَدد على شفاه العشاق والحيارى.

أذكر النرجس، وأذكر هدية أبى قرط من أزهار النرجس، وكبُرْتُ وكَبُرَت معى أزهار النرجس بداخلي، فعشقتها كعشقى لك وأصبحت كل أزهار بيتى من النرجس وكل بيوت الشام رائحتها من أزهار النرجس.

بيتى صغير، مكوّن من غرفتين تتوسطهما ساحة مستطيلة الشكل وفسيحة، ومطبخ صغير لا يتسع إلاّ لإثنين، بابه تشرّع على حديقة صغيرة بها كرسى الهزاز وأرجوحة أهرب إليها منك كلّما تحاول أن تضمنى لصدرك، أو كلّما تعبت من اهتزازى الذى يتركنى فى غيبوبة للحظات، فأرمى بكتلة جسدى المتعب عليها فى ذهاب وإياب، هنا فقط أشعر بحريتي.

كنت أطأ العتمة دون أن أدري، وخلف دهاليزها خسرت حلما كان يشرق فى سجنى المظلم كشلاّل يتدفق فى الوهاد المرتفعة، لا يخشى، لا يرهب القضبان، كطير يحلق وسط عتمة الشجن، يحرك الساكن بداخلي، ويقبض على المشاعر الجامحة وعلى رغيف الخبز فيهديه لقيمات من الحبّ إلى طفل يتحدى الجوع صابرا، ويتعطر بأزهار الياسمين فى فيافى القحط، ويبتسم للنصر المطّل من وراء الشبابيك.

ثم يقول قصيدته ويكتب عموده، ويضع جريدته على الطاولة ويعلق معطفه، ويدخن سجائره ويشرب قهوته الساخنة على عجل ويقبلنى على عجل ثم يمضي، وأبقى وحدى أردّد قول الشاعر الكندى وأترنح

مزهوة بحالى قائلة ويحك يا قيس أوى لم تتعب:

فقبّلتها تسعاً وتسعين قبلةً

وواحدةً أيضا وكنت على عَجَلْ

وعانقْتها حتى تقطّع عقدُها

وحتى فصوص الطّوْق من جيدها انفصلْ

كأن فصوصَ الطوق لما تناثرتْ

ضياءُ مصابيح تطايرنَ عن شُعَلْ.."

كانت جدران بيتى مطلية بعناية كبيرة، ألوانها هادئة، غرفة النوم لونها بنفسجي، تشعرنى بالعزلة والدفء، فيها تؤجل كل انشغالاتى وأطوى كل مساحات فوضاى ولحظات تمردي.

وحدها غرفتى وبلونها الهادئ تشعرنى بالطمأنينة حينما أغلق النافذة وأسدل الستائر على الزجاج الشفاف، بهذه الغرفة أشتهى القراءة والكتابة، فيغرينى سريرى بالفوضى وبالغوص فى فراشه وتزحف اللحظات المتعبة التى أثقلت كاهلى عنى رويدا رويدا ثم أنام، وفى قلب الظلام تنبعث أصوات وأصوات، ترعبنى حتى أضحت جزء منى ومن وحدتى وفض أسراري.

كلّ ذلك لم يكن يعنينى فيما بعد، أما فى بداية الأمر كنت أحتاج إلى هنيهة كى ألتقط أنفاسى اللاهثة، فتتعاقب الصور صورة صورة وسط صمت مهيب، بينما كنت فى سريرى أحمد ربى أنها كانت مجرد أضغاث أحلام.

مضت ليلتى مرعبة وبتُّ على حافة الجنون، بعدما كنت قد حزمت حقائب الترحال باتجاه دمشق.

وأنا فى باريس، وقفت عند "كافتيريا باريس"، تذكرت فنجان قهوتك وارتسمت لى صورتك على الطاولة تقرأ الجريدة، وأنا إلى جانبك أقرأ عمودك الأسبوعي، قبل ذلك كانت الأيام تجر بعضها بعضا.. كنت مدمنة قراءة وأنت مدمن حروفى أو كلانا، تعانقنا فى ساحات المدينة الضبابية كتمثال تفنن النحات فى تشكيله، يقال أن فولتر كان يضحك ليخفى دموعه العزيزة، وكنتَ من يذرف الدموع بين الحين والآخر على صدرى لتجعل فى النهاية للضحكة المرسومة على شفتيك رصاصة مدوية فى عمودك الأسبوعى أو قصصك التى تنفلت منها الحياة هاربة من وجعها.

كنتُ أخشى من دمعاتك ومن ضحكاتك، وفى نفس الوقت كنتُ أحسبك "بوكاشيو" الإيطالى الذى رمى به التاريخ إلى الوراء وأعاده مرة أخرى فى"الليالى العشر" ديكاميرون، ليصف هو الآخر الحياة هاربة من الموت، مأساة انسانية من التراث الإيطالي...

كنت أجوب شوارعها وأتفرّس الوجوه الباهتة والمبهرة والباردة، كان احساس جارف يدفعنى للخروج بسرعة هذه المرة، سرعة تشعرنى بالقلق والتوتر، كنت أحسب أنك فى انتظارى بالشام وبباقات النرجس، لكن المدينة كانت باردة وعبقة برائحة النرجس شعرت بذلك عندما وطئت قدماى المطار.

غسلتّنى منذ ذلك الحين، وقد كنت إحدى قصائدك التى استحممت فيها، وقصصك التى أحوم حولها، هى أجراس روحى تخشى من صدى روحك وتهلل لخوفى الذى يذكرنى كلما أشتهى الرحيل عنك.....

كنتَ كلما تهفو نفسك إلى أرضك تقول:

"هى زهرة المدائن فى حسنا، أخطو نحوها وعطرها فوق الثرى ينمو أمنيات وأنا أرمقها عاريا من وجعى وأولد مع ريح عاتية لا تبقى ولا تذر، شظاياها قنابل تحطم الركود وتجلجل السكون من حولي".

كنتُ أجدك كأولئك الضائعين بين أرصفة الدروب المتداخلة وعتمة الزوايا المظلمة، كل ما كنت أفعله أننى أهرع إليك وأنا أرثى نفسى وأزرع الحبّ فيك، فتتضح فى وجهك كهوف المجهول. "لأننى لا أستطيع أن أضيف إلى عمرى عمرا جديدا"، هكذا كنت تقول لى دائما حينما أحدثك عن الحياة، ثم تواصل بزفرة عميقة قائلا:

- إن عمرى قد مات وانتحر على طول الظلّ الذى أمتطيه، أو يزورنى لحظة أن أبقى على هامش المدى أرقب اللحظات القادمة وهى تمر كالعماء البهيم.

كنتُ فى باريس وقد بعثت لك برقية تخبرك بوصولى هذا اليوم إلى دمشق بعدما حاولت مهاتفتك مرارا وتكرارا لكن الخط كان مغلقا.

باريس باردة وصباحها بارد وهى ملفوفة فى وشاح أبيض، ضباب كثيف ووجوه شاحبة وباردة، مطار باريس شارل ديغول يعج بكل الوجوه والأجناس، وكلما أدخل المطار يذكرنى الماضى بقوله "أيها الفرنسيون

لقد خسرنا معركة، لكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره"، وارتسمت على محياى ابتسامة ماكرة وراحت بى الذاكرة إلى حرب فرنسا على الجزائر، وما عانه شعبها من تعذيب وقمع وتشريد وجوع وإبادة، ويا ليت أجداده عرفوا ذلك قبل غزوهم الجزائر..

كانت الساعة التاسعة والنصف، لم تتأخر الطائرة عن الإقلاع كما تعوّدت فى المطارات الأخرى، أين يقتلنى الإنتظار ويمزقنى التوتر والقلق، ويأخذ منى الإرهاق جمال بشرتى الملونة بمساحيق التجميل.

بعد ركوبى الطائرة وهى تحلق فى الفضاء أحسست أننى فى قبضة الملكوت ورهبة الخالق الجبار، وبعد ساعات من التحليق بين السحاب وقراءة بعض الجرائد وشرب عصير البرتقال، تنطق المضيفة بأن نحزم الأربطة استعدادا للهبوط فى مطار دمشق.

رتبت هندامى وأخرجت مرآتى الصغيرة ووضعت بعض أحمر الشفاه على شفاهى الذابلة وبعض البودرة على ملامح وجهى المتعبة.

حملت حقائبى واتجهت نحو بيتى الطفولي، ومنه صوب الفندق الذى تعوّدت لقاءك فيه.

دخلت الفندق، سألت النادل عنك، لكنه أجابنى بابتسامة دافئة قائلا:

ـ سِّتّ غادة، لقد غادر الفندق البارحة.

قلت له:

ـ على أية ساعة من فضلك؟

قال وهو يتصفح دفتره:

ـ الساعة الرابعة مساء.

قلت له:

ـ شكرا..شكرا لك..

وقبل أن أغادر المكان رد عليّ قائلا:

ـ نسيت، لقد ترك لكِ هذه الرسالة.

ـ رسالة..

أخذت الرسالة من يده بسرعة..

استغربت فى البداية، لكن زال استغرابى لأننى تعوّدت ذلك...ثم ابتسمت فى وجه الرَّجل قائلة:

ـ ممتنة لك سيدي.

انزويت فى الرُّكن وأنا أفتح الرّسالة متلهفة دون أن أنبس ببنت شفة، تصفحتها بلهفة العاشقة، وبلهفة المغامرة، وبلهفة المراهقة، وبلهفة القلقة، وبلهفة الخائفة، وبلهفة المذنبة، وبلهفة المشتاقة التى تنتظر أن تضمها بين ذراعيك.

كنت أكتشف مساحة بياضها وكم من السطور خط قلمك، أشمّ فيها رائحتك، عطرك المفضل، أشمّ دخان سجائرك الذى يفوح منها وأتنهد من ألمى عليك مشفقة.

فى البداية كنت أقرأها بلهفة، وأتأملها ثم أقرأ ما وراء السطور

وأتفرس ملامح وجهك كيف كانت وأنت تكتب حروفها، وأعرف قلقك حينما تشطب على الكلمات وتعاود كتابة كلمات أخرى، أعرف قلقك الكبير وتوترك حينما تشطب الكلمات مرتين فتبعثرنى أنا..... مرتين..... وأتساءل:

- ما به؟

- ما كتب تحت محوها؟

أخذت الهاتف من حقيبتى واتصلت بصديقنا أبو المظفر النحاس وعلمت منه أنك رحلت مستعجلا لأمـر هام، وبقيت فى حديقة الفندق أنتظره.

كانت خيبتى كبيرة، وكان قلبى يعتصر من الوجع، لكن كتمت غيضى أمامه.

وما هى إلاّ ساعات قليلة حتى جاء أبو المظفر واستقبلنى بالأحضان والفرح، وكم تمنيت أن يكون حضنك؟

فهِم أننى منزعجة فملامح وجهى كانت مكفهرة، لكنه علق مازحا:

- الشام اشتاقت لى كثيرا، كثيرا.

فهمت تلميحه، وجلسنا نشرب قهوة اللقاء.

شربت قهوتى معه على مضض، وقدمت له مقالتى الأسبوعية لنشرها، وتواعدنا على اللقاء فى مكتبه قبل سفري.

كانت أنفاسى تطبق على صدري، فخرجت إلى المدينة أشمّ رائحتها التى اشتقت إليها، ثم إلى الحارة القديمة بعدما تجولت فى أحيائها

القديمة وطفت بشوارعها وكنائسها، وتبضعت من سوق الحميدية بعض الأقراط الجميلة والأقمشة الحريرية، وانتقيت وشاحا أزرقا أعجبنى كثيرا لأنه يليق بسمرتك، والتقطت بعض الصور للذكرى عند أعمدة المعبد الوثنى جوبيتر الدمشقى الذى بنى أيام الإغريق، ووقفت عند قلعة دمشق الشهيرة وتمثال صلاح الدين، تعبت من التجوال، ومن سوق إلى سوق، ومن معلم إلى معلم، كل هذا لأننى لم أجدك فى المدينة.

وتذكرت يوم اللقاء .....

الفتى العكّاوي!

أيها الفتى العكّاوي!

المتحفظ والقلق والبارد، كنت أحاول تهدئتك واحتضانك بقوة، ثم أجهشت بالبكاء ثائرة فى وجهك قائلة:

- لقد تحملت الكثير وأنت تغفل عني، تمنيت تحطيم رأسك مثلما فعلتُ بأفكارى التى خيَّبَتني، ثم انعطفت نحو الباب من الجهة الأخرى، وبداخلى ثوران بركان صمتى الدفين.

وأنا فى دمشق، كان السكون يلف المكان وخيالُك يعبث بمخيلتي، ومرايا وجهك تتشظى حين أستفزها بسؤالى وحيرتى وهيجانى الذى يبعثر دواخلي.

انزويتُ عن الأنظار قليلا وبحثتُ عنك بين المارة كصغيرة تائهة فى شوارع المدن، مددت يديّ مرات ومرات أتحسس المكان الموحش وأشباح الأنظار تطاردني، فيدهشنى تبعثرى الذى حوّلنى إلى كتلة تحوم حول نفسها فى فراغ فوضاها.

كنتُ عطشى لوجهك وللمدن التى التقيتُك فيها، والتى فتحتَ عيْنَيْك عليها وأرْبَكْتَك، أخذَت من روحك وشظايَاها ودفنَتَ بداخلك أجمل الأحلام لتكون مكتشفا آخر لها، لم تكن كريستوف كولومبوس الذى قرأنا عنه فى المدارس، وعرفناه مكتشف البر الأمريكي، ونسيّ التاريخ أن يذكر لنا صاحبه بنزون، فسقطت ورقته من تخليد اسمه، ومات.

مات مارتن بنزون، ولكن ربان البحر يعرفونه والبحر شاهد على شجاعته فى الغوص داخل أعماقه.

أنت هكذا يا صاحبى مارتن، أرادوا أن يسقطوك من الذاكرة لتعود إليهم فى "عائد إلى حيفا".. هكذا أنت يا حبيب العمر!

هى ورقة لم تسقط من أوراق التاريخ رغم ما لقيت من النكران المؤلم والسجن الأبدى والصمت المكره.

كنتَ مجنونا أو شبه مجنون بالعودة إلى شجرة الياسمين، كنت كذاك الإمبراطور الرومانى فى إحدى مسرحيات ألبير كامو "كاليغولا[1]" أن تملك تلك المسافات الفاصلة بين جسدك وروحك، أن تسحقهم بحذائك العسكرى ورشاش قلمك.

صاحب "الغريب" ألبير كامو ابن أمه فرنسا تغنى بالسحر الربانى الذى حبا به الله الجزائر، والتى عاش أهلها بؤسا اجتماعيا من جراء الاستعمار الفرنسي، إذ يقول: "ليس أشد وقعا على المرء من أن يرى ذلك البؤس فى أحضان أجمل بلد فى العالم."، وكانت هكذا زهرة المدائن التى عشقْتَها.

كنتَ.. وكنتَ..

كنتَ الأرض، ووحدها الأرضُ كانت تناديك إلى حضن الأمان، والعمر موجوع والقرى باكية، يشّع حزنها كعروس فاتنة، كحسناء تلبس الدهشة والأسطورة، كقصيدة حب دامعة العينين تذوب على شفتيك الداكنة من دخان السجائر.

١- كاليغولا تعني الحذاء العسكري.

لم تبرح الشمس مكانها وأنا أتابعُك بنظراتى من خلف زجاج نافذتي، نافذتى التى أرقب منها انهزامى ووجعى وتكاسلى وراحتى ورحلاتي، وفرط جنونى وراحتى وسكونى وهدوئي، حتى قلقى وتوترى منك وعنك!

نافذتى أغلقها حينما أريد أن أتمتع بقيلولة طويلة تساوى لحظة فرح وانزواء كما طفولتى التى أزهو بها بين الروابى الخضراء.

أكثر ما كان يشدُنى عطرُك وعيناك ولقاءاتُنا المتكررة وقلبُك الذى احتوانى من فراغى بعدما اقْتُلِعْتُ من جذوري، وكنتُ كمن يتهاوى من جوهره وأنتَ ترمقنى بنظرة تأملية،غريبة، ساحرة، موجعة، وبكل اللغات رسمتَ على جدارى أنتِ الأرضُ التى تتكلم بلغتي..

أشعلتَ سيجارة مرة ثانية بعدما احترقت الأولى بين إصبعيك دون أن تنتبه لها، وبعدما أحرقتَّنى بنظراتك التأملية.

تشظّت أفكارى بعدما سكب ترياق الغربة على كل أوصالى وتناثرت روحى فى فضاء هواجسى فيرتعش جسدى النحيل على جرائم دموية أغرقت فى الرمل والإحباط والنسيان.

لم يأت هذا الصباح كعادته باسما، فليلنا أنهك أعصابنا وخارت قوانا ونحن نحمل حقائب الوجع، هكذا كنت تردّد دوما.

وانتظرتُك.....

كانت الساعة العاشرة ليلا، أعددت لك فنجان قهوة وقطعة من الحلوى، ولى شطيرة لحم وقطعة جبن وبعض الفاكهة.

كنتَ مهموما ومتعبا وجسدُك منهكا، ومع ذلك كنتَ لا تتوقف عن الكلام، كنتَ تقول وتقول وأنا أستمع إليك بألم وحسرة.

ذات ليلة باردة كانت آلام الوجع تنخر جسدك، لم ترحمك المسكنات، كان الوجع يمزق قلبك مرتين، المرض والوطن، حاولتُ تخفيف آلامك بتحضير كأس شاى ساخن، لكن زاد وجعُك وأنتَ تُخبرنى حكايتك منذ الطفولة وأنا جالسة أمامك موجوعة ومبهورة.

كنتَ تقول عن الوطن:

غادة...

لم نقرر مغادرة عكّا، كنا مجبرين على ذلك وأنا طفل صغير ثم شاب حينما وضعتُ يديّ على حفنة تراب وهى تنساب بين أصابعى هاربة من قبضتى وغصة المرارة فى الحلق مرة كالعلقم، ثم شاحت أمى بوجهها عنى بعدما تركَتْنِى فى العراء بخطى ثقيلة ومتعبة، تجر أذيال الخيبة، تتوقف تارة ثم تواصل سيرها بعدما أنهكها المشي، كأنها تنتظرنى وقد جفت الدموع فى مآقيها، لكن قلبها كان ينتحب بألم، فى عينيها بريق يوحى بقدرة على الصبر والتحمل واليتم والفقر والهجر، تخطو خطوات إلى الأمام ثم تتراجع خطوتين إلى الوراء، كأنها تنتظرنى أن ألحق بها أو كأنها لا تريد أن تغادر.

رغم المرارة التى تجتاحنى مازلت أقبض على حفنة التراب الهاربة من بين أصابعي، وبدت حفنة التراب أكثر حنانا وأكثر دفئا فى قبضتى وأكثر ألما وهى تهرب مني.

اكتسحتنى ثورة عارمة، عرق ينز من جبينى وشفتاى عطشى، وحلقى ظمئ، ألثم حفنة التراب، أمرغ بها وجهي، ألوّنه وأنا ألثم وجعي، ثم لاحت أمامى صورة البطل الجزائرى مصالى الحاج يحمل حفنة التراب قائلا:

ـ هذه الأرض ليست للبيع؟

يا لى خيبة الذاكرة التى أحملها متعبة، كيف يمكن لى أن أرمّمها فى عرائى الموحش، هى تختزن كل طفولتى وفرحى وحزنى وعمرى وعشقي، آه أيتها الذاكرة التى سترعبنى فى مشوار عمرى القادم، إن كان فى العمر بقية، وتفرغنى فى حياة يتغير فيها الإحساس والزمن!

آه أيتها الذاكرة التى سرقت عمرى فى تجاعيد وجهى الأسمر، وتنتحر مع كل سيجارة أنفث دخانها فى عتمة أيامى المتعاقبة، وقد كنتُ أنتظر مجيء الصباح بشغف كبير أن يمسح عن وجوهنا مسحة الحزن والكآبة والألم والتعب، كنتُ أنتظر ذلك كى تشعر أمى بدفء اللحظة وشمس غد مشرق أن تقبّل رأسها وتحنو عليها من قسوة الحياة عليها، أذكر أنها كانت تلبس الجَلاَية، وهى جبة من نسيج قطنى كان قد أهداها لها أبى يوم زفافهما وحذاء البابوج أو الشبشب.

كنتُ أتأمل تلك الزركشة والألوان فى لباسها وأمتلئ طمأنينة بأننا لم نضيّع هويتنا فتجتاح أنفى روائح أعشاب برية تزين لذة الطعام، وعطر التوابل المشرقية فى أكلها الطيب.

تأملتُ أمى كثيرا وتجاعيد أبى وأنا أجوب أرجاء البيت غرفة غرفة،

وأتلمس الجدران جدارا جدارا، وأقف فى باحة المنزل متأملا الورود الجميلة وشجيرات النعناع واللوز على جنباته تبعث عطرها الفواح فى الفضاء، كأنها تودعنا برائحتها الزكية حتى تبقى فى الذاكرة، وأتتبع خطى إخوتى وهم يتوجسون خيفة من رحلينا.

تأملت وجوههم وكأننى أتحدث إليهم وأدركت سر ريبتهم فنفضت عنى هواجسى المرعبة وشعرت بموجة عارمة من الفرح الهيستيرى وأنا أجتاح المكان فى مخيلتى وأشرّع أبواب الذاكرة الموصدة بالتوغل أكثر فى المكان، أبحث فيها عن ملاذ من عرائي.

قال لى أبى العكّاوى ذات مساء بارد:

ـ لا تكترث للطيور المهاجرة وتتألم لفقدها المكان، ستعود إلى أوكارها وبأسراب جديدة وبألوان مختلفة؟!

أبى المحامي، العكّاوي، هو الوجه الآخر للمكان، هو روحه التى نفخت فى روحى الهدوء. تمتمت أمى دون أن نسمع لها صوتا بكلمات مبهمة، ولكننى أحسست أن إخوتى كانوا يسمعون ما تقوله، كلماتها الحارقة تبعث بوخزها فى روحى وتؤلمنى حد البكاء.

ـ ترى هل كان والدى يحاول اقناعى كى نكمل الطريق؟

ـ هل كان حكيما فى قوله، أو أنه أراد أن يبدّد مسحة الكآبة والحسرة التى اجتاحت حياتنا ويبعث السكينة فى كهوف ذواتنا، ولكى يمنح أمى شعورا بالدفء أو يشعر إخوتى بغربة المكان الذى سنرحل إليه حتى لا ينسوا؟

قائلا:

- البيت الجديد يشبه بيتنا.

فردّت أختى الصغيرة فايزة:

- لكن ..لا تسكنه ذكريات طفولتنا...أين كنا نلعب الغميضة يا غسان؟

لقد كانت الحقائب تعد نفسها للرحيل مرغمة من عكّا إلى يافا، وصور المجازر تلاحقنا من دير ياسين ويافا وحيفا، ثم الرحيل إلى بيروت، ثم صيدا، أين مكثنا ببيت قديم فى بلدة الغازية قرب صيدا وعشنا ظروفا قاسية لا تحتمل، وتواصل الرحيل وحزم الحقائب باتجاه حلب، ثم استقر المقام بنا فى دمشق، وتبدأ الحياة بوجعها.

الذاكرة تستوطن ستائر النوافذ كلما أقف عندها وأزيحها لأرى ما خلفها، أتفقد الضياع الذى يسكننى ثم أعيدها كى أتجنب خيباتى المتلاحقة وزفراتى الموجعة.

عام ١٩٤٨ الكارثة، هى الهزة التى أفقدتنى توازني، أفقدتنى تركيبتى الإجتماعية وأورثتنى الهجر والترحال، ولم تعد المدن تعرفنى فأغلقت الأبواب والنوافذ، وأصبحت المدن محرمة ومحاصرة، وكان المنفى، وكان أهلها متعلقين بنضالهم وأفراحهم، وأعراسهم مواويلهم حزينة وأهازيجهم ملونة بالدمع والخوف والجوع والعري، أصفاد تطوق المعاصم والرقاب فى السجون.

أعينهم تقذف حمم النار فى كل ريف وتغرز فى الصخر والصحراء

قنابل الدمار، وتطبع قبلة الحنين على حبات القمح وأشجار الزيتون وزهر اللوز مودعة.

كنتُ طفلا آنذاك أو شابا أو شيخا أو كهلا طاعنا فى السن، كنتُ الزيتونة وقرص الشمس الأصفر المتوهج، وكنتُ عكّا والبروة[٢] ويافا وآلاف الشبابيك المغلقة، وكنتُ جرحنا الذى يلوِّن دمع الربيع على أفنان الزهور من أرضنا كل يوم.

وتحت شفرة المقصلة ودخان البارود يقبل العمر مزهوا، يثير الدهشة ويطرق بابى بين الفينة والأخرى. وقد رأيت فيما يرى النائم شتاتا وأكفانا بيضاء، وبقيتُ مكانى مهموما، قلت يا أبت:

نظر إليّ باستغراب.

- إنى رأيت رؤيا... وقبل أن أكمل قال لي:

- لا تقصص رؤياك.. قد يصدقها إخوتك ؟!

صمت برهة، ثم نظرت إليه مستغربا ولم أتفوه بأية كلمة أخرى.

عام ١٩٤٨ أجبرت عائلتى على النزوح، نشدّ حقائب الترحال إلى يافا أو المنظر الجميل، كما تقول كتب التاريخ، ثم إلى لبنان وسوريا.....

كنت أضحك كثيرا حينما كنت أسمع أمى وهى تضحك أو تمازحنى عن ولادتى قائلة:

- حين جاءنى المخاض لم أستطع أن أصل إلى سريري، وقبل أن

٢- البروة قرية عربية هدمها الاسرائيليون عام ١٩٤٩

أضعك كِدْتَ تختنق فى رحمي، وحدث هذا فى التاسع من نيسان.

- أمى التى كنتُ أنصت إليها غير مهزوم بقلقها وهى تطوقنى بإحساس الرعشة الأولى ورطوبة المكان تزيد من وجعها وألمها وهى تروى ذلك.

كنتُ أحاول أن أجرب الإبتسام والتوغل فى ذكرياتها المفجوعة، المحملة بالمعاناة وهى تُسقطنى على أرض باردة، قاسية، انتحرت يوم نزوحها.

كنتُ أحاول أنا الطفل العكّاوى أن أسرق منها شموخها الماثل أمامى وهى مزهوة بولادتي، تحاصرها حرقة المكان، وفى الأفق ملامح وطن يشيده الحنين ونار الشوق نازفة تنخر جسدها المتعب فى زاوية معتمة من هذا المكان، أتأمل قلبها الذى حطمه الإنصهار وشوهت ملامحه جثث الأطفال التى أدمته.

كانت تقول لى يا ولدي:

- كان بالإمكان أن نعيش فى سلام ووسط هذا الخراب الذى يجتاحنى أخاف أن تتوقف محطة العمر بعيدا عن يافا أرض أجدادي.

كانت أمى تذرف دمعا حارا كلّما اشتّد بها الحنين، وتحاول أن تخفيه عنا كى لا تشتعل فى قلوبنا حرائق الهجر من جديد.

البارحة وهى تنسحب فى صمت شعرت أو تخيّلت أننى أمشى فى أزقة حينا العتيق والحلم فى بيتنا القديم، نشمّ عبق أرضنا ونتعطر بأريجها الفواح.

بيتنا تحرسه بسمة الأنبياء ونداء أرواح الضحايا يرفرف فى السماء

ويردّد:

فدائي، فدائي، فدائى

كنتُ أنا، ووحدى أنا.

وحدى يا غادة...

فى ليلى البارد أتجرع المحن وقد نُسجت من حولى كل الأكفان كطائر دون جناح وجْهَته أن يظل يحدق فى الأفق البعيد كسيرا ويحلم بجمع شتات وطن أسير.

وحدى أنا..

أسافر بأوراق ثبوتية تفصلنى عن ذاتى وتربطنى بالمكان عند كل نقطة تفتيش، أركن إلى الحائط ويدايّ فوق رأسى كصديقى حنظلة الطفل !!

كنتُ كتلميذ أبله يعاقبه المعلم لأنه تأخر أو خالف الإنضباط فتنتابنى غصة فى الحلق تشعرنى بالحزن ورغبة فى البكاء، لكن محاولة حبس دموعى تزيد من تشنجى فتُوَلِد عندى مقاومة مشاعر قوية أحاول السيطرة عليها قدر المستطاع دون الإستسلام لضعفي.

أجل كنتُ حنظلة، ناجى العلى الذى اخترعه ليكون شخصية لرسوماته ولحياته ولوضع عربى متعب.

وهكذا يا صديقى حنظلة ؟

كنتُ حنظلة العلي، عمرى عشر سنوات، وُلِدْتُ الطفل حنظلة فى ذاكرة كاريكاتورية، يرسم عوالم مجهولة لواقع مؤلم.

وسأظلّ كذلك أمشى رويدا، رويدا، ويدايّ مقيدتان خلفى كما صديقي.

ـ أتدرى يا غادة ماذا كان يردّ ناجى حينما يسأل؟

أومئ برأسى دون أن أنبس بكلمة واحدة حتى لا أقطع حبل أفكاره المسترسلة ولا أزيد من وجعه أكثر، لقد كان أمامى بركانا يغلي، يثور تارة ويهدأ تارة أخرى، فتركته يتكلم عن حياته طول الليل.

يأخذ غسان نفسا عميقا ويتنهد بمرارة قائلا:

ـ حينما يسأل ناجى متى يلتفت حنظلة إلى الوراء يقول:

ـ حينما يسترد الإنسان حريته؟!

واغتيل حنظلة وهو مازال يمشى ولا يلتفت خلفه!!

رهيب أن أغمر هذا الإحساس القاتل فى داخلى يا غادة، رهيب أن ألتقط الصور من بعيد، رهيب أن أُخَزنها بين أوراقى وتحفر فى تلافيف الذاكرة أوجاعا مؤلمة ثم تنفجر كقنبلة بداخلى تمزقنى شظاياها إلى حروف وكلمات ماطرة، عاصفة غاضبة، حارقة، وأنا الهادئ والمتزن والمتوتر من وجعى والعاشق المتعب.

كنتُ أشعر بانفعال غير عادى وبسعادة تباغتنى من حين لآخر كلما أحس أننى قادر على تحريك الساكن وأنا أسمع إلى نبضات المجروحين فى المخيّمات، ثم أوَدِعهم بنظرات وديعة رسمتها المحن مبكرا على ملامحهم.

ومن وراء القضبان العالية أحس بقلوبهم تدق هلعا وتستصرخ من داخل الزنازين.

قرى كثيرة طواها النسيان واختفت خلف الملامح المصطنعة، قرى كثيرة سلبتها الجرافة، وحلم طفل صغير أن يلعب مع أصدقائه الذين تفرقوا عنه وبقى سجين دموعه وجوعه وعريه.

قرى كثيرة طواها النسيان واختفت خلف الملامح المصطنعة، قرى كثيرة سلبتها الجرافة، وحلم طفل فلسطينى صغير أن يلعب مع أصدقائه الذين تفرقوا عنه وبقى سجين دموعه وجوعه وعُرْيه.

قرى كثيرة غُيرت أسماؤها وأنا مدين لها بالإخلاص والمحبّة والنضال.

وهل تتصور مدى قلقى يا صديقى حنظلة؟

وهل تتصور مدى قلقى أيّها الوجع لأننى لم أعد أخلص لذاتى ولتلك المحبّة، حينما يباغتنى اليأس من حين لآخر.

لكنها تحيا فى ضميرى وأشربها مع كل قطرة زيت ولون حبّات الزيتون، تعود أحلامى مع تلك البذور المنسية فى صرة أمي، ومع الأمل المدفون فى قلب أبى العكّاوى وهو يخبئ مفتاح العودة بين أشيائه.

سامحينى أيتها الدموع المهملة التى تباغتنى من حين لآخر، أننى لا أستطيع أن أمسك نفسى من لوعتها.

سامحنى أيها النهار الذى يفترس ليلى المتعب أن أغرق فى فرحى وأرقص على جروحى النازفة، فكل القرى احترقت فى لهيب الليل الصامت.

وحينما تشع بوشاحك عنا نمسح دمعنا خوفا من رذاذ يندى وجوهنا

ونتكوَّم فى مخيّمات ممتلئة كتلال الرمل الذى يبدد عرْيَنا، وأنفاس القتلى جاثمة على صدورنا، ومحنة كبرى تمضى فى مرارة الحنين لا جغرافية لها غير حدود أنفاسى ونداء المكان يطاردنى ومتابعة السفر بتصاريح وهمية وجوازات سفر مشبوهة.

القرية محروسة والسهل والأشجار والجبل كذلك، وداخلى هو الآخر محروس، يدعونى أن أحيا مرة ثانية فى مراتع الصبا المحروسة، وأنا لا أرى غيرى واقفا عند الأسلاك الشائكة استنشق هواء الدماء وذاكرة تعيد لى ما وقع لى بالأمس.

ترافقنى طول العمر قائلة:

ـ هذا المكان مكاني؟

ـ هذه الأشياء جزء مني، جزء لا يتجزأ من أوصالي؟

كان الوقت ظهرا حينما هبّت نسمات خفيفة تحمل رائحة اللوز، تعيدنى إلى الأرض ورائحتها، هناك كانت البراعم تتفتح بيضاء وحمراء تعانقنى مرحبّة وأنا الجسد المريض والمنهك من وخزات إبر الأنسولين.

وأنا أروح وأجيء خلف الأسلاك الشائكة وأتذكر:

ـ أنه لم يبق من أصدقاء الصبا سوى الأمكنة الفارغة تطوف مخيلتهم بالمكان، لقد رحلوا جميعا، مات من مات ورحل من رحل واغتيل من اغتيل وسجن من سجن؟

وبقيت أنا هنا خلف الأسلاك أتفقدهم من حين لآخر، أحادِثهم، ألاعِبهم، أنكِت معهم، ثم تسقط دمعة حارقة تجرح خدى على الذين

رحلوا إلى الأبد.

لم أقطَع الصلة بالماضى رغم أنه لم يعد حاضري، ولكنه يرسم صورته الجميلة فى مخيلتى ويعانقنى بأحبابى بكثير من الحبّ والفقد والوحشة.

جاوزنى العمر بالأسفار وكان الصمت حاضرا فى كل وقت، والحزن ينبش فى روحى أوجاعا أُسكتها بإبر الأنسولين ثم أمضي، ألاحق سفرى عبر المطارات والعمود الصحفى فى الجريدة ينزف ألما ينتظرني.

ألاحق صمتى بأحرف من نار وأوقع روحى باسم من ضياء الأرض فيمنعنى الخوف والكبرياء والضياع من البكاء وحقائب السفر الثقيلة التى هدّت كاهلي، وبين أضلعى جبل بمتاريس من أشواك أصد بها رشاشات الغدر فى كل مكان.

وأنا الذى يريد لحظة من الأمان، وهواء للإستنشاق وبلسما للشفاء.

توالت حيرتى ولازمنى السكون لفترة ثم تحرك الساكن بداخلى وأومأت الحركات من حولى بالوقوف، وضاعت منى الكثير من الكلمات التى عقدت لسانى عن الكلام.

فى المساء، مسحت بيدى على خجلى الذى نسيت فيه ذاكرتى ورحت أفتش عن روحي، عن سلام ينهض ذات فجر ويشعل بركان صمتي.

لم أنتظر توديع أمى أو تقبيل إخوتي، ولم أرتّب ملابسى داخل حقائب الترحال مرغما، كنتُ على عجل، دائما على عجل، كل شيء كان مبعثرا، حتى ملابسى وكتبى وبقايا سجائر على الطاولة مرمية.....

غفت غادة وتركتنى مع وجعى وسجائر الدخان..

أسرعت إلى محفظتى ولففت شالى الأزرق على رقبتي، وخرجت مسرعا باتجاه مكتب الجريدة.

كنتُ مرتبكا وقلقا ومضغوطا ومتألما، كنتُ كلى على بعضى ككومة من الإسفنج المنفوش، ثم أغلقت الباب ورائى وخرجت وتركت غادة شاحبة الوجه بعد ليلة بيضاء موجعة تضّم وسادتها على الأريكة وصديقى حنظلة مازال يمشى ولا يلتفت خلفـه!!

أيلول فى مدريد

قلت فى قرارة نفسي:

- غادة وغسان فى انتظاري..

فى الطائرة كل لحظة أنظر من النافذة إلى الأرض البعيدة، كانت حدة قلقى تزداد وتوترى يشتدّ ويسرى كاللهب فى مفاصلى لأننى أخشى الطائرة، فأنا أحب الأرض لأنها تشعرنى بالأمان والطمأنينة.

شعرت بالراحة فقط عند اقترابنا من مطار مدريد، لقد سكن الخوف بداخلى والريبة منذ لحظتى الخرساء، ويزداد نبض قلبى كلما أسمع أزيزها.

حطّت الطائرة بمطار مدريد باراخاس، نزلت الدّرج بوجه شاحب وأنا ألمح ابتسامة المضيفة الجميلة المصطنعة ترسمها على شفاه حمراء وأقول فى قرارة نفسي:

- هى مجبورة على توزيع الإبتسامات مجانا !!

نزلت...

وقتها فقط تنفست الصعداء وأحسست أن قدماى تلامس الأرض، الأرض الحنونة التى سلبت مني.

إحساس مريب أن أعيش فى مكان غريب عن وطنى وأتعاطف مع غيره ولا أبدى احتقارا له لأننى أحترم شخصيتى فى وطنى الذى أفخر

وأعتز به كلما وطئت قدماى أرضا ما، لأننى أحمل همومه ومأساته بأعماق أعماقي.

إحساس بالوحدة، والغربة المؤلمة، ومن الفرح بلقاء الأحبة، ضاعف من الشوق وزاد من ارتباكى وتوتري.

وصلت المكان ظهرا رفقة جراحي، وجدت غادة تنتظرنى فى البهو، عانقتنى بحرارة ممزوجة بالدموع والفـرح.

ارتميت فى أحضانها كطفلة صغيرة وجدت أمها بعد غياب طويل، بقيت مدة فى حضنها أشم رائحة أمى فيها وأعزى ذاتى المجروحة بأنفاسها، وهى تحضننى بقوة، جراحنا التقت وفقْدُ كل واحدة لأمها احتضناه بمرارة شديدة، أحسست إحساسها وأحسّت بإحساسي، ويمر على الصمت المؤلم ثوان أبصرت وجهها وشعرها القصير ولباسها وابتسامتها وعيونها الواسعة تتألق فيهما شعلة الحبّ والحنان وهى تتفرس ملامح وجهى قائلة:

ـ لقد كَبُّرت يا صغيرتي...

ابتسمتُ فى وجهها وهى تكفكف دموع الحزن عنى وتمسحها بابتسامة عريضة تزين وجهها الجميل، وأنا أنظر من حولها كأنى أبحث عن شخص آخر أنتظره معها.

لاحظت ذلك وفهِمَت نظراتى وهى تربتّ على كتفى قائلة:

ـ غسان مسافر..

تغيرت ملامح وجهى إلى دهشة ثم أردفت قائلة:

سافر قبل البارحة إلى دمشق، لكنه يعلم أنك ستصلين اليوم وهو يقرؤك السلام ويعتذر بسبب ارتباطاته، لكنه سيأتي، سيأتي.

قلتُ لها:

- كعادته !!

حملت حقيبتى وركبت سيارتها البيضاء باتجاه شقتها القريبة من وسط المدينة، المدينة جميلة جدا تطلّ على ضفاف نهر مانثاناريس، وأنا التى سرقوا فرحتى بمدينتى عكّا فكانت عيونى لا ترى إلاّ اللون الأحمر يزين شوارعها النائمة على الجراح ثم تصبح على العويل والنواح كل يوم.

وأنا أغوص فى هذه المدينة الكبيرة، أراها كحسناء صامتة عن ماض اغترفت منه الخطايا الكبرى، تقاسيم وجهها تجسده فسيفساء مبانيها، وهوية ضائعة سرقت ملامحها الجميلة ومن كحل عيون بائسة عانت من الدمع والقهر والجلد وموت الكثير ورحلت هاربة من الذاكرة التى لا تنسى.....

ببيتها الأنيق وقفت مندهشة عند كل ركن من زواياه وهى تستقبلنى بابتسامة جميلة وفرحة كبيرة، لكنها تخفى حزنا عميقا بداخلها، كان حزنها عليَّ يصرخ من ملامح وجهها.

غادة عانقتنى من بعيد عناق الشوق والموت، كان عناقها يشبه الأرض التى فتحت جوفها لتضمنى وتبتلع آلامى ووجعى وانكسارى ولحظتى الخرساء.

كانت الأولى فى كل شيء، كانت تتصل بى من حين لآخر وتطمئن عليَّ بعدما مات كل من أحبهم تحت قصف الطائرات.

وأنا ألّج ردهات البيت، وقفت عند أول غرفة تقابلني، كان بابها شبهَ مغلق، لمحت صورة لأبى وأمى معلقة على الجدار، سقطت حقيبتى من يدى وهرولت مسرعة نحوها بعدما فتحت الباب بهدوء، وأنا التى كنت أبحث عن صورة أبى سالم البكرى الذى احترق.

وقفت للحظات أرقب الصورة، اغرورقت عيناى بالدموع، وأنا أحضن ذاكرتى ولحظتى الخرساء بين ضلوعي.

جثوت على ركبتى منهارة بعدما غسلتنى دموع حارقة وشهقة الألم تعصرنى اعتصارا.

كانت غادة تحاول أن تخفف عني، وأننى لم أعد أحتمل حياة المطاردة، وأن أبحث عن ملجأ يضمن لى الأمان.

بعدما استرحت من عناء السفر وغيّرت ملابسي، وقفت عند نافذتها المطلة على الساحة الكبيرة وبجانب شقتها كافتيريا صغيرة وجميلة جدا وبمحاذاتها حديقة صغيرة مزينة بباقات من الورود المختلفة ألوانها.

سألتها ومازلت أنظر من النافذة:

- وكيف حال غسان، اشتقت له كثيرا وكلما أقرأ كتاباته تزداد لوعتي؟

ردّت باسمة:

- إنه بخير، لكن جسده متعب؟

ثم قلتُ لها بعدما استدّرت نحوها:

- وقلبه متعب يا غادة!

توقفت قليلا وكأنها تريد قول شيء ما، كل ما فعلته أنها ابتسمت فى وجهي، ثم تابعت ترتيب الطاولة.

أعدَّت لنا غادة فطورا شهيا بالسمك المتنوع مع حساء حار منه وبعض الفاكهة اللذيذة والمشكلة.

تجاذبنا أطراف الحديث فى كل شيء عدا أن تحدثنى عن أهلي، بصراحة كنت أنتظرها أن تفتح جراحى من جديد لكنها لم تفعل، سألتنى عن جدى اليعقوبى وعن نابلس وعن الوضع فى المنطقة وعن الحياة فى المدن الفلسطينية وعن.. وعن ....، وحدثتها بدورى عن أندريا وما جرى له، وعن لقائى بالشهيدة دلال المغربى وسؤال صديقتى ماجدولين عن الحبّ والنضال، وهنا استوقفتنى كثيرا عند كل فكرة كنت أقولها لها... وعن.. وعن، ومازلت أنتظر سؤالها، لكنها تعمّدت أن لا تسأل، وكلما أحاول أن أذكر شيئا تهرب من كلامى إلى كلام آخر وكأنها لا تريد أن تثير مشاعر الحزن فى ليلتى عندها، وبقيت الليلة كلها أنتظر سؤالها كى أفرغ ما فى صدرى من ألم، لكنها لم تفعل!

ونسيتُ للحظة أن هذه المرأة الجميلة والحالمة كانت موجوعة أكثر فأكثر منذ صغرها.

لم أعد أشتهى زيارة القبور، فكل التراب سكنت به رصاصة الأعداء

وتوزعت الأشلاء هنا وهناك فى كبرياء، وسبع سنابل خضراء أنبتت شاهدة فوق قبورهم وتوزعت بين الإخوان حطاما.

كنتُ أتحدث إلى غادة دون أن أنتظر سؤالها، أتحدث عن طفولتى المشردة وعن ضيعتى الخضراء وزيتوننا المثمرة، وعن حباتها الخضراء التى تكسرها أمى ثم تعصرها وتستخرج الزيت منها، وكل صباح تملأ الصحن الأبيض بزيت يتلألأ كالبلور مع خبز التنور الساخن.

كان أبى يفرح حينما تعد أمى له فطور الصباح وهو يسعد بضحكاتنا وكلبنا تيو فى الضاحية بين المروج مزهوا بذيله القصير الذى يرفعه إلى أعلى أمام كليبات جارنا اليوسفي.

كنت أرى هذا وأضحك بداخلي، كنت أستحى أمام أبى وأمى أن أقول شيئا أو ألمح برغبة كلبى نحو الكليبات..

كل صباح نشرب الشاى الأخضر على مائدة متنوعة من الخضار التى كانت تقطفها أمى فدوى من البستان.

كان أبى سالم يؤمن بأرضه وبمفتاح العودة، كان دمه حاميا وفى قمة حزننا والأحداث التى اجتاحت حياتنا، أحاول جاهدة التخلص من صراع الأسئلة التى تدور فى ذهني.

أسئلة خبيثة تعشعش فى ذهني، تفتش عن أشياء وأشياء واستمر فى القول ثمة وثمة، وقرارات لا يمكن الرجوع عنها، والعيش بكرامة يعنى الاستمرار والنضال، وأسئلة أخرى ظلّت فى مخيلتى تلازمنى طيلة يومى ثم يلتهم الألم والحسرة شغاف القلب من جديد.

لم تقاطع غادة بوحى والحديث عن آلامي، تركتنى مدة طويلة وأنا أترقب سؤالها، ولكنها اليوم تصغى دون أن تسأل.

شعرت بأن الدم جفّ فى عروقى وألوانا ارتسمت على ملامح وجه اشتعلت أمامه قناديل الحزن من جديد.

كنت أنتظر منها أن تحضننى كى تشعرنى بالدفء والأمان، لكنها لم تفعل، وبقيّت على حالتها مطأطأة الرأس تصغى دون اهتمام، هكذا شعرت أو ربما هكذا خيّل إلي.

لقد علمتنى الأوضاع ذلك، لأن أولئك الذين يطاردون وميض أرواحنا يمنعوننا من الإبصار، لقد جردونا من كل شيء إلاّ من وميض أرواحنا التى تتقد كشمعة وسط العتمة.

كان باستطاعتى العودة إلى ضيعتي، إلى وطني، إلى زيتونتي، إلى قبر كلبنا تيو ذو الذيل الأبتر، ولسوء حظى أبعدنا بالقوة، ولازمنى شعور قوى بالإنتقام.

لقد كانت نهاد حداد الاسم الفيروزى فى سماء لبنان، والبنت القروية التى أعطتنى ناى جبران يلازمنى فى همساتى وحركاتى وسكوني، صوتها فى الغرفة يئن على أنينى وهى التى أسكنتنى الغاب بناى الفرح والحزن وأنا أردّد معها وجعي...

"هل اتخذت الغاب مثلى منزلا دون القصور
فتتبعت السواقى وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر وتنشفت بنور

وشربت الفجر خمرا فى كؤوس من أثير

.....

.....

هى من يسكن صوتها الدافئ غرفتى الباردة ويمسح عنى لوعة الفراق، ورومانسياتها الحالمة تضفى على غربتى الموحشة طقوسا جميلة فى المخيلة، لحظتها تذكرت أندريا ومحاصرة عينيه ونزيف قلبه على وطن سلب من بين يديه وهو طفل صغير.

كنت أقول له دائما:

كن صديقي...

فى البداية قلتُ كن صديقي، كن صديقى وكفى، كى لا أتجاوز حدود الذات معك، واليوم وبعدما عرفت حقيقتك أقول لك:

ـ كن كما تكون لأنصهر فى ذاتك وأسكن فى سراديب روحك الموحشة؟

لا أريد أن أفارقه، و لا أريد أن أنساه، يكفى أن ظلّ شيطانه يرقص أمامى ويقفز كالحلم على جراحي.

أعجبتنى كثيرا تلك السفينة التى أهدانى إياها على شاطئ البحر ونحن نصطاد الحلزون البحري، فحسبت نفسى أهرب منى إليه وقد دبّ المساء ولم يجد غيرى يتأوه فى العتمة.

يا حبيب العمر، إنك غريب ومع ذلك متهم مثلى بالجنون وصانع مراكب الغواية فى نفسى وعلى ثغور مازالت تلهث وراءك لترتوى

وتغريك بالنشوة؟!

كنتُ أسيرة رفضى وأسيرة ارتباطى بك، وفى الأخير رميت بنفسى بين يديك دون أن أترك حطام قلبى أو روحى تعتصر لبعدك.

كنتُ أرى قلبى يرفرف من شدّة الفرح لأنك فلسطينى مثلي، وأبكى لأنك رحلت دون أن تعرف أننى أعرف ذلك، ولست أدرى لماذا؟

هل كان الخوف من المجهول أو ممّا عانيته من قسوة وجور وأنانية وعذاب تحمَّلته لوحدك؟

لملمت نفسى فى غطائى وأسندت رأسى إلى وسادتي، ثم استمعت إلى فيروز بمشاعر متأججة وحزينة، نبرات صوتها الدافئ بلسم لعذاباتي.....

أركان بيتى مظلمة، وأثاثها مبعثر بعض الشيء، وقد كنت أحاول أن أدارى خجلى من كل هذا عند غادة بعدما انسحبْت وتركتُها لوحدها، وقد زاد من حزنى الظلمة فى ردهات البيت وأنغام فيروز الهادئة والحزينة تملأ الفضاء....

الرَّجـل الظّـل

مدينة أنا للصدفة التى حملت لى أشياء كثيرة، وأجبرتنى على الوقوف عند ضفاف الحزن الذى يرافقنى من مكان إلى آخر كلما أحاول النسيان.

اعترف أن الصدفة الجميلة لم تتكرر معى منذ لحظتى الخرساء ورحيل أندريا، والصدفة وحدها اختارت هذه المدينة الجميلة الغارقة فى الخطايا أن تهبنى لحظات من الفرح، ولم تكن مجرد لحظة عابرة فى حياتي، فقد عوَّدتنى أن تزورنى كالطيف كلّما اشتدّ حزنى وضاقت بى الدنيا.

وأنا أحتسى فنجان القهوة وأطيل النظر من النافذة على كافتيريا الصباح المقابلة لشقة غادة، رأيت رجلا يشبه أندريا، وربما شوقى له هو الذى أوهمنى بحضوره أمامى بعدما ظلّلت رؤيتى خيوط شمس ذهبية تسلّلت خلسة خلف السِّتارة.

تنحى الرَّجُل الذى كان بجانبه والتفتَ هو إلى النافذة يحتسى قهوة الصباح بنفس الطريقة التى ألفتُها منه.

أمعنت النظر فى هيئة الرَّجل الظّلّ بقوة وصرخت وأنا أحوِّل بصرى من النافذة إلى غادة ومن غادة نحو النافذة قائلة:

- أليس أندريا؟!

- إنه أندريا.. إنه هو..هو؟

نظرتُ إلى غادة وأومأت لها باتجاه النافذة، وأشرت لها بالنظر إلى الرَّجل هناك.

حدقتُ فى عيونها متلهفة...أدارت رأسها وبقيت برهة ثم حوَّلَته باتجاهى مستغربة، ومعالم الحيرة ارتسمت على محياها قائلة:

- لكنى لا أعرف شكله !!

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها، وكرَّرت قولها.

قلت لها مرة ثانية وكأن جوابها لم يعد يرضيني:

- إنه أندريا؟!

ضحِكت وأعادت رؤيته.

وقالت:

- ربما تشابه عليكِ، أو خيِّل لك!!

ثم انصرفت ....

لم أرد عليها، وبقيت حائرة وتائهة بين أندريا الذى أعرف وصورة الرَّجل الظّل التى أمامى ومشاعر غريبة تجتاحنى نحوه، ثم رميت بثقل جسدى على الأريكة القريبة منى وقد تبعثرت كل الأشياء أمامى إلاّ صورته ونحن أطفال نأكل الحلوى المعسلة أو نصطاد حلزون شواطئ عكّا الجميلة.

شعرت بقليل من التوتر والخيبة، وسألت حالى بعدما حاولت أن ألملم بعض الأشياء التى تبعثرت فى مخيلتي:

- هل قادنى موعدى لزيارة اسبانيا مدينة الأرانب البرية، أن يكون

أندريـا هنا ويعـود الوصال بيننا الذى كان حلما على لسان ابن الخطيب قائلا:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يـا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصْلُك إلاّ حُلُمًا
فى الكرى أو خُلسة المختلس

ولأن المدينة هى أيضا جريحة مثلى فقد احتضنت حزني. فاض دمع الحنين للذى مضى، وأنا أترقب لقاءه ثانية كل يوم بعـد هجرته هاربا من حقيقته المفجعة، وأنه من قرية دير ياسين، غرب القدس، وابن عائلة اسحاق عبد الستار التى هربت بعد المذبحة الشهيرة التى نكل فيها بالنساء وبقرت بطون الحوامل، والتمثيل بالجثث أبشع تمثيل، وبأشلائهم كانت تلطخ الجدران، فأسروا بالرجال والنساء اللائى طافوا بهن وهن عاريات حافيات فى القدس الغربية، وأصبحت الأرض والقرية مجرد خراب تتصاعد منها روائح جثث السلام التى تعبق المكان برائحة الشهيد...

- إنه أندريا، بل ياسين الطفل الفلسطينى المفقود الذى أخذته فرقة من الجنود الإسرائيلين من مربيته ريتان.

ياسين، أندريا طفل واحد سرقوا طفولته وبراءته وحضن والديه، ولكن كيف وصل إلى عائلة بنيامين؟

- ذاك هو السؤال الذى كان يحيرنا فيما مضى؟

أندريا اليوم يطاردنى موجوعا، يطاردنى كلحظتى الخرساء هنا فى اسبانيا، اسبانيا الحلم المفقود، اسبانيا مدينة التاريخ، وأنا أستاذة فى التاريخ، لا وطن لى غير تاريخى العريق الذى أتشبث به.

وأنا فى اسبانيا بمعالمها وحدائقها الجميلة تستحضر ذاكرتى مدينة جزائرية قرأت عنها فى تاريخ الجزائر وثورته المجيدة، تشبهها كما يشبه الرّجل الظّل أندريا، مدينة الصخر العتيد، قسنطينة، التى لم يخف "ثيوفيل غوتيه" Théophile Gautier إعجابه وولعه بها حينما زارها فى صيف ١٨٤٥ ومقارنتها باسبانيا قائلا عنها فى رقصة الجن (رحلة إلى الجزائر): "... قسنطينة مثلها مثل "الحامة" و"روندا" فى اسبانيا، قد بنيت على هيئة نسر فى أعلى صخرة هائلة، تعزله عزلا تاما تقريبا هوة يتلوى فيها نهر الرمال، ولا يوصلها بالأرض المحيطة بها إلاّ جسر ولسان الأرض يشكل نقطة الدخول الوحيدة إلى المدينة. إن مدينة أحمد باي، حتى وإن دخلت تحت سيطرة الفرنسيين فهى لم تفقد أى شيء من طابعها العربي، فقد حافظت على شوارعها الضيقة، المتداخلة ككبة من الخيط لا يمكن فردُها، وعلى مآذنها السامقة، وبيوتها الخالية من النوافذ وأبوابها الواطئة، ومظهرها الشرقي.."[١]، وهكذا هى اسبانيا لم تفقد ملامحها، وهكذا هى اسبانيا يا غوتيه التى فتحت مدنها شهيتى للغوص فى معالمها الأثرية الرائعة، أن أكون وجها لوجه مع أندريا الظّل فى هذه المدينة الغاضبة من التاريخ وأندريا مفجوع من ماضيه المؤلم

١- الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر.

البشع وغاضب من تاريخه.

أو ربما أن التاريخ غاضب منها ولا يغفر لها كما أندريا؟!

بساحة اسبانيا لفتت انتباهى امرأة غجرية بقوام رشيق تضع فى أذنيها قرطين دائريين واسعين وترقص فى الساحة على ايقاع القيثارة رقصة الفلامنكو وهى تلف جسدها بلباس أسود وفى يدها وشاح أحمر، تراقصه مرة على جسدها ومرة ترفعه إلى أعلى، فى حالة أخرى تلوح به يمينا ويسارا، وفى خطوات وحركات سريعة تضرب الأرض بقدميها برشاقة وقوة، أصابعها فى الأعلى تتلوى كجسدها الذى يداعب ايقاع عازف القيثارة وكأن المرأة الغجرية تراقص لوركا على أنغامه الموسيقية وترسم معه حكايا الغجر التى يحبها والألم الذى يشعر به.

لوركا العاشق للفلامنكو وللمدينة تُخلد انهزامها على أشعاره الحزينة وعلى مبانيها الهرمة، وبموته يستنهض من ذاكرتها نار الظلم ونار الجمال الخالد، ويعانق من بعيد روح غسان ومأساة الإنسان الفلسطيني.

مشيت فى اسبانيا وكأننى أسير على مذابح افترشت على أرضها وأخشى من معاقبتها لي، وكلما خطوت خطوات إلى الأمام أقف هنيهة وكأننى أسمع صوت عائشة الحرة يردد فى المكان بحزن ويئن من الحسرة وهى تمسح عن ابنها أبو عبد الله الصغير دموع الأسى والألم قائلة:

"ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال"

كنت أشك أن تكون هذه زفرة العربى الأخير كما قيل، فكل شيئ فى المكان يوحى بأن العربى لم يهزم بعد.....

مذبحة دير ياسين يا أندريا تشبه مذبحة مملكة غرناطة التى أقامتها محاكم التفتيش والكنيسة الكاثولكية فى حق المورسكيين أو الغرباء فى غرناطة، وأنا أقف عند الذاكرة الجمعية التى اغتيلت يطوف أمامى أمراء غرناطة المسلمين ببهو السباع فى قصر الحمراء الذى دخله المالكان فى جو بهيج من عام ١٤٩٢ وخرج منها أبو عبد الله الصغير مهزوما.

استهوتنى هذه المدينة كثيرا وآلمتنى كثيرا مواجعها، وهنا تلوّنت الذاكرة بالفردوس الضائع وحلم فرناندو الثالث ملك قشتالة والملكة إيزابيلا الأولى، وراوغتنى المسافات الطويلة والثابتة والمتشابهة بكثير من الشجن، تلوّنت برائحة الحزن والفرح المبهم، تصنع رائحة المكان العتيق المضرج بالدماء، تجمع شتات الأشلاء ودفء الأرواح المعبقة برائحة التاريخ وحميمية الذوّات، تصرخ جنباتها بالأرواح التى زارتها أو مرت بها أو دُفنت بتربتها أو هُجرت إلى ما وراء البحر.

ضاجت نفسى وضقت ذرعا، فالأماكن كانت حبلى بالوجع لكنها لا تنطق، وذبت فى المكان واغواءاته وفى عمق الروح المأسورة بنورانيته الملطخة بالدماء ووهجه الذى يطوف من حولى ويحركنى فى صمته المثقل، يفترش لى برودته وظلاله الرطبة وسحر الحكايا التى مرت منه.

حينما وصلت إلى أندلس العرب ألحّت عليَّ فكرة التاريخ مرة ثانية وزاد الإلحاح يوما بعد يوم، وتراكمت ظروفى وهمومى التى هربت منها ومضى عليها أكثر من سبعة وعشرين سنة، سنوات تنطفئ ثم تتوهج ولم أستطع التحرر منها ومن لحظتى الخرساء وأنا أستعيد ذكرياتى التى حفرت فى القلب أخاديدا من الألم ولم يطوِها الزمن فى بحر نسيانه.

أدركت منذ الوهلة الأولى أنّ هذه المدينة العريقة التى أقف على أبوابها هى تشبه الأشخاص الذين أحببتهم وأشعر بألفة دافئة وغريبة نحوهم أتعاطف معها أحيانا وأعجز أحيانا أخرى فى فهم شعورى نحوها.

كان شعور الماضى يتكلم بداخلى وأنا التى نفِرت روحى من باريس ذات يوم أثناء زيارتى لها، مدينة الجن والملائكة التى لم تغرنى بالبقاء، أتعبتنى باريس وأنا المرأة الحالمة بالجمال فى موطنى عكّا.

تغريدة عصفورى طائر المَحَنا ترافقنى فى صمتى بعدما تركته عند نابلس كى تعتنى به وتحتفظ برسالتى إلى أندريا التى أُخبره فيها بحقيقته التى اكتشفتها من مربيته المجنونة ريتان، وبعض الحقائق الأخرى والمشاعر التى كنت أخفيها عنه...

- ترى، هل أعطته الرسالة؟

- هل علم أننى أعرف حقيقته، وأننى فى اسبانيا عند غادة وجاء للبحث عني؟

آه يا أندريا، أين أنت؟

لم تغرنى باريس، أو لأننى حبلى بجراح الذاكرة لم أعشقها كما عَشِقَها الغرباء أو كما عشقَتْها غادة التى تحبب البقاء فيها.

الغرباء الذين توهموا فيها الحبّ والعطاء واحتوتهم ببرودة وجفاء، ولكن....!!

ولم يكن العالم عندى هو باريس كما تعوَّد بعضهم انبهارا بها، لم تغرنى عطورها ولا ملابسها ولا بنيانها، ولا.. ولا ..

باريس التى تفننت بيوتات الأزياء فى تقويم جسد المرأة للغواية لم تبهرنى بقدر ما أبهرتنى الألوان، ألوان الطبيعة بريشة جان انطوان واطو مصمم الملابس المسرحية المزركشة أو بشاعرية جان أونوريه فراجونار وحكايته مع الضوء.

قلت، كان شعور الماضى يتكلم بداخلي، حنين عميق يجذبنى نحو اسبانيا، المدينة التى جعلت التاريخ وحده ينطق بين شفتي، فشدّنى شوق كبير لأسلافى وللحضارة العريقة التى أقاموها بعد عناء وتعب وأنا ألوذ إليها من متاعب الحياة وهمومها التى تطاردني، وكأننى أربط الحاضر بالماضي، وخيط الحنين يضم مكبوتات ظلّت حبيسة الأعماق فجرتها الصورة الماثلة أمامى لجيوفانى براغولين وحكاية الطفل الباكي.

لم يكن الحلم يراودنى فى أن أقضى بقية حياتى فى مطارات ومدن أوروبا الباردة، ولكن أعباء التهجير هى التى فرضت عليَّ الإنفصال عن ذاتى وروحى التى ترفرف فوق رأس جدى اليعقوبى وتبتسم كل

لحظة مع نابلس فى مدينتى عكّا.

وجاءت الفرصة لأعود إلى الماضى فى لباس جديد يشعرنى بثقله وأنا أحس بالقلق والفرح وخطواتى متعبة كما جسدي، فتغمرنى الدهشة ويتملكنى شعور غريب نحوها.

فى قصر الحمراء بغرناطة وجنة العريف بأزهارها ونفوراتها، وقصر المورق، ومئذنة الخيرالدة وبرج الذهب باشبيلية، استحضرت الذاكرة شيوخها وعلماءها، كشيخ الشيوخ الفقيه المتصوف والشاعر الأندلسى سيدى بومدين أو أبو مدين التلمسانى وصاحب طوق الحمامة القرطبى ابن حزم يطوف بحمامة الحبّ الانسانى وذاك أول ما كنت أبحث عنه فى هذه المدينة وهى تذكرنى دائما بقوله:

."الوجع والفقر والنّكبة والخوف، لا يحس أذاها إلاّ من كان فيها..."

معالم كثيرة تبعث فى نفسى البهجة والروعة والأنفة والشموخ وهى تحتفظ بعمارة اسلامية عريقة ومساجد كمسجد قرطبة الذى لا نظير له.

شوارع مبلطة ومزينة بالزخرفة العربية الأصيلة شيَّدتها أنامل تعشق الجمال وتتفنن فى تشكيله على الصخور والحدائق، ليعصف بكل هذا الارث العريق الخلافات بين ملوكها.

ضعضع كيان غرناطة حينما غلبت الملذات على شهوات النفس وفتح بابها على مصراعيه لصراع السيّدات الحالمات بالملك ومحاولة الظفر بالسلطة لأولادهن كما يقول التاريخ، وذاك حينما تزوج مولاى

الحسن وهو فى سن متقدمة من الفتاة الإسبانية النصرانية ايزابيلا دى صولي، والتى كانت جارية عند السلطان أبى الحسن والتى أسلمت ظاهريا وسميت ثريا وأنجبت منه وأصبحت سيدة القصر الأولى، ومن زوجته الأولى وابنة عمه السيدة عائشة (الحرة) أنجبت كذلك ولدين، أين حاولت إقناعه بسجنها رفقة ولديها، لكن السيدة عائشة لم تستسلم للمكيدة وهربت من سجنها ومن الشِرك الذى نصبته لها إيزابيلا.

استقبلتنى المدينة بعبق الماضى الجميل والحزين وسررت بذلك لِما رأته عينى من مبانى جميلة وحدائق منتشرة فى كل مكان، إلاّ أن هاجس الخوف والضياع كان يلازمنى منذ لحظتى الخرساء ولم يفارق مخيلتى منذ أن وطئت قدماى أرض العرب، وعادت بى الذاكرة إلى خوفى، ثم ما انفك أن تبدد هذا الشعور حينما توقفت أمام قصر الحمراء، وربما كان لهذا السحر والإنبهار أثره على مزاجى ونفسيتى المتعبة.

كانت كل الوجوه تتشابه تحت ضوء شمس دافئة، حتى غادة تشبههم، أما أنا فكنت أتفرسها كأننى أبحث عن شيء مفقود أو افتقدته فى زمنى فى ملامحها.

طقس حار وأجساد عارية على الرَّمل معرضة لأشعة شمس حارقة على شاطئ ساردينيرو فى سانتاندير المطلة على بحر كانتابريا.

ثم أقف عند بوابة هذه المدينة ساحة اسبانيا الرائعة فينتصب أمامى فى منتصفها نصب سيرفانتس وبجانبه مجسم لبطلى روايته

دون كيخوتيه وبانزا الفلاح، وأتذكر رائعة دون كيشوت التى عرفتها فى رسومات الأطفال وأبحر مع مغامرات سرفانتس إلى اسبانيا، حيث استولى القراصنة على سفينته واقتادوه كأسير إلى مدينة الجزائر بسجن البايلك بالقصبة الذى كان من نزلائه ١٥٧٢ طلبا للفدية، حيث أمضى خمس سنوات ينتظر الحرية.

سيرفانتس باءت كل محاولاته العديدة فى الهرب بالفشل، قبل أن يتمكَّن أفراد أسرته وكنيسته من افتدائه، التاريخ وحده كان ينطق بكل شيء، كل معلم يخفى حكاية ويثير جدلا، التاريخ وحده كان يزين المدينة، والتاريخ وحده كان الشاهد على الماضى وآلامه.

ثم مرت على شفتى ابتسامة خفيفة، وباغتتنى حميمية دافئة جاءت من الماضى البعيد الذى يذكره التاريخ، أين تذكرت عشقه لزريد[٢] المرأة الجزائرية التى عشقها وهو يلمح ساعدها يخترق وحدته، ويكسر صمته، ويبدّد وحشته بين القضبان، ويمسح حزنه، يخترق نافذة مزينة بالنباتات ويحاول الدفع بقصبة يراع طويلة بها خيط مربوط به رسالة وهى تتجه حيث سيرفانتس، ومن ولع سيرفانتس بالمرأة الجميلة إلى "ثيوفيل غوتييه" هو الآخر لم ينس أن يصور المرأة الجزائرية التى فتن بها قائلا "...فى الجهة المقابلة تجلس على الطريقة الشرقية أربع نساء أو خمس نساء فى مقتبل العمر، يغطين رؤوسهن بتلك المناديل الحريرية ذات الألوان الصارخة، المطعمة بخيوط ذهبية، وهى المناديل التى

٢- المرأة الجزائرية في كتابات- مخائييل سيرفنتاس.

تحسن النساء الموريسكيات لفها بشكل مغر حول غطاء الرأس المخملى الذى يغطى قمة رؤوسهن، أما جفونهن المسودة بالكحل، والأهداب المصبوغة التى تتصل عند منبت الأنف، فإنها تعطى لجمالهن طابعا غريبا لا يخلو من جاذبية."[٣]

فى مدريد اللوحات التشكيلية كل واحدة لها حكاية، وكانت تصدمنى لوحات الإسبانى سلفادور دالى وتشكيلاته الغرائبية، كنت أحس أن هذا الرَّجل مجنون أو فوضوى فى داخله أو نرجسى حد العظمة التى تنفرنى من شيطان عبقريته التى تقول:

- "لقد كنت فى نظر والدى نصف شخص، أو بديل، وكانت روحى تعتصر ألما وغضباً من جراء النظرات الحادة التى كانت تثقبنى دون توقف بحثاً عن الآخر الذى كان قد غاب عن الوجود". وهكذا كنت أظننى اليوم وأنا أطارد ترحالى من مدينة إلى مدينة ومن مكان إلى مكان ومن لوحة إلى أخرى فى هذه المدينة العريقة.

مدريد بأحيائها وشوارعها التاريخية ومعالمها الرائعة وقصورها الفخمة، كقصر مدريد الملكى ودار الأوبرا وحديقة بوين ريتيرو، وفى متحف ديل برادو تستوقفنى الحرب وآلامها مع فرشاة وألوان فرانشيسكو دى جويا وفظاعة الحرب ومأساة الشعب الإسبانى خلال الاحتلال الفرنسى لاسبانيا ١٨٠٨، مما زاد من وجعى وتألمى وخوفى من لوحاته السوداء التى تبعث فى النفس الرعب والهلع لهذا الرَّجل الأصم.

٣- الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر.

لتبقى فى الذاكرة صورة الطفل الباكى تلازمنى والتى لم أكن أعرف صاحبها، ترافقنى فى مخيلتى منذ كنت صغيرة، وأجدها معلقة على جدران أحد البيوت التى ألفتها فى مدينتى عكّا.

كنت أقف عندها مبهورة وأحاكيها بسرى وأتأملها كوقفتى مع لحظتى الخرساء، فتنتشلنى غادة من شرودى بوقفة هنا وهناك ونحن نجوب أروقة المتحف الرائع.

الإيطالى جيوفانى براغولين هو الفنان الوحيد الذى لازم شعورى بالوحدة والعذاب وأنا طفلة دامعة العينين تبحث عن أمها التى تركت لها الحرب ذراعها مفحمة بسوار ذهبى فى المعصم ونسيت بيكاسو فى ظّل دموعى الحارقة وماضى المثقل بالجراح.

أكون متعبة كثيرا حينما تكون ذاكرتى متعبة، وأرفض الصمت حينما يتعلق الأمر بذاكرة الوطن، يزداد تعبى كلّما أجد نفسى أتأرجح بين مخيّلة الماضى والحاضر ورَنَّة صوته تخترق مسمعي.

مخيّلة تعيدنى إلى ذاك الرَّجل الظّل الذى بقى لفترة من الزمن لصيقا بالنافذة، لم يتحرك ولم يلتفت وراءه، كنت أعيش حالة من الفوضى وكان يعنى لى رحيل الحرية.

كنت لا أملك حق التحدث بشيء، كنت أرفض الخيانة، وكنت أرفض تلك اللوحة التى أمامي، هى صورة ملامح الرَّجل الذى فارقته منذ زمن تعاود مطاردتى أو تعاود الصدفة تكرار نفسها معي، كأنها تذكرنى بلوحة الفنان جيوفانى براغولين ولوحة الطفل الباكى التى تطارده فى حلمه.

كانت ألوان وطنى الساحرة وحدها تبكى بداخلي، وحدها كغيمات ماطرة، فآلامى لم تهدأ بعد، والجرح مازال مفتوحا على المكان.

وبعد فراق طويل يعود.....

بكيت كثيرا، فيما كانوا هم يضحكون على موائد شهية تغرى بالأكل.

بصراحة، كانت أحلامى كبيرة وبسيطة، كانت تختنق وتنتحر أمامي، أن ترفرف الراية عاليا، وأسمى أحد شوارعنا باسم عائلة الشهداء سالم البكري، وكان الرَّجل فى مخيلتى لا يزال لصيقا بالنافذة.

لم يكن فى تلك اللحظة حديثا بيننا، أجبرنى الخوف وقتها على التعامل مع صمتى ولحظات الترقب، ولعنة الذكريات تحاصرنى وترتب تفاصيل الأمكنة أمامى من جديد.

مريبة هى لحظة الصمت تلك، ارتجافى وقلقى وشوقى وضجرى ولحظتى الخرساء التى تطاردنى من مكان إلى مكان وتكتم على أنفاسى حتى فى هذه المدينة الجميلة.

أمارس طقوس الجنون بداخلى حينما أمتطى كومة السحاب كئيبة فتمطر نائحة ولا قدرة لى على الاحتمال، وأكثر ما يؤلمنى كبريائى ودمعة عين تتأرجح فى مقلتى مرعوبة.

الساعة الخامسة مساء، وقد تعوَّدت الرَّجل فى مكانه، أو الرّجل الظّل يأتى فى نفس المكان ويغادره فى الظّل دون أن يلتفت ليتركنى فى قلقي، أدارى صوتى المبحوح والمكتوم خلف صمتى وأرقب كل شيء من حولى ونفسى تردّد:

- هذا الرَّجل يشبهه، إنه هو أندريا؟

- ..لا..لا..ظّل هذا الرَّجل يشبهه!!

- لماذا تعاود الجراح زيارتها لى خلسة وفى ظلّ رجل؟

- هل أندريا يمتلك قلبى وروحى لدرجة انشغالى به؟

بقيت مع نفسى أفكر وأفكر منذ زمن لم أره، منذ أن غادر المدينة المنكوبة فى صمت وخلفه حملتُ حقائب الترحال...

أندريا بعده بقى ذلك الفرح المتباكى على أضرحة الماضين وهو شجيرات اللّوز المزهر وهديل الحمام وزقزقة العصافير وبكاء عصفورى طائر الحسون، هو مكان الثرثرة الذى ألفناه والأنس والأرواح النائمة فى خلدها وهو.. وهو...

منذ ساعات الفجر الأولى وأنا أتلملم فى فراشي، وفى نهاية المطاف قررت الذهاب إلى الكافتيريا المقابلة وقبل أن تنهض غادة من فراشها.

ارتديت أجمل ما عندى وخرجت، عند دخولى الكافتيريا تفرست الوجوه جيدا، أخذت الطاولة القريبة من المدرج السفلى حتى أكون قريبة من المارة وبداخلى أحضن باقة من الذكريات الطفولية، ثم طلبت فنجانا من القهوة الثقيلة وقطعة حلوى مطلية بالشكولاطة السوداء.

كنت أضحك تارة وأبتسم تارة أخرى بداخلي، ثم أرتشف قهوتى وعيونى تلاحق الظلاّل والوجوه، وكأننى أخون جراحي، أو أخون تلك الأمكنة التى تطاردنى برهبة من مكان إلى آخر.

منذ ساعات الصباح الأولى تهيَّأت بحنان كبير للماضى البعيد،

أفرش له ورودا ووجها من الفرح والغبطة.

ألوِّنُه بقبلات تزاحم انتظارى وتتطاول على قلقى الذى بدا على رعشات يدّى كلما رفعت فنجان القهوة.

كنتُ أشَكِّك فى كل شيء، والحرمان كان يجتاحنى بقوة، وصراع بالفقد يرعبنى مرة ثانية.

أذكر يا رفيق الطفولة زرع القمح وزخات المطر ونسيم الحبّ وعلى أجمل ضفة كنا نمشى ونتسابق وننثر العطر فى كل مكان ونتوارى عن الأنظار، ونختبئ من وعيد بنيامين وزجر أمى المسكينة.

وأنا اليوم يا رفيق العمر أحمل سلاحى حزنا وما طلع الصبح فى سمائى بعد رحيلهم، فتوابيت أحبابى من تحت الرماد تبتسم أزهارا.

آه يا أبي....

كم رويت لى يا أبى من الحكايا، كم حدّثتنى شفاهك عن أنين حب انتحر برصاص الغدر وعن أطفال فى السجون.

وآه يا أندريا، يا رفيق العمر..

لا تغضب يا رفيق العمر من طفولتك المسلوبة، فقد التقينا بالأمس فى طريق الليل، نتسلق شباك السجن، نتحدى العتمة والدهاليز، نفتش عن عيون طفل لم يتجاوز عمره العمر.

قيَّدوه، وأنا أرقبه وكلى لهفة لحضنه، لقد أخذوه إلى السجن للاستجواب، ثم لم يعد لحضن أمه الدامعة وقلب أبيه المتحسر.

أمه كانت تجرى خلف السيارة العسكرية فتتعثر فى أثوابها التى

تجرها، والسيارة تبتعد، والطفل الصغير ينادى أمه البعيدة عنه، وأنا وأنت نترقب من بعيد.

وراء القضبان يوشوش صوت الصغير متألما، عشر سنوات وهو يبنى خلف القضبان صبر طفولة بريئة وشتات عمر تهاوى بين الردهات المظلمة.

وأنا فى زاوية الغرفة مازلت أرقبه، أتسلق شباك السجن، أحمل وشوشته فى أذني، لا أبصره، بل أبصر صوته القلِق النائم بين الدهاليز المظلمة ورغيف خبز يابس بجانبه تلعب به الجرذان، وينساب نهر فيروزى فى الفضاء يصدح أنينا، يلملم شظايا الروح المفجوعة.

يا طير .. يا طاير على أطراف الدني
لو فيك تحكى للحبايب .. شو بنى
يا طير .... يا طير
يا طير وآخذ معك لون الشجر
ما عاد فى إلاّ النظرة والضّجر
يا طير .. يا طاير ..
وحياة ريشاتك وأيامى سوا
وحياة زهر الشّوك .. وهبوب الهوا
.....
يا طير.....
.....

كنتُ أهرب من موالها الحزين وأسكن بين ضلوعى وجعى وأتوارى خلف أفكاري، وأرسم على جبين الصغير ابتسامة الخلود.

كلّما شربت قهوتى مع خوفى أتذكر كل مرة أنها نهايتي، فتأتى شمسى لتباغتنى بدفء الحنين إلى ماض يستوطننى منذ الأزل.

فى الماضى كنّا، واكتشفنا أننا كنّا، ثم نحدّق فى الماضى بكبرياء فينا وفى الجسد بؤر لا تكف عن الحفر والنبش فى الذاكرة.

طوّقتنى رغبة ملحة فى معرفة طقوس هذا البكاء المفجع الذى يطاردنى من حين لآخر وإلى تلك الأجساد المرفوعة على توابيت الحرية، كيف ترفع الذات، وكيف تُقَبَل، وكيف تُلَمْلم بين الأحضان، وكيف تُغَسَّل بالدموع، وكيف تُكَفن بالبياض، وكيف تُرفع على الأكتاف فى جو مهيب.

ومن ثمّة صارت كل الأشياء تتلون شيئا فشيئا، حتى الأصوات النائحة تلوّنت بالزغاريد، وحتى الدموع تلوّنت بالابتسامات.

كنتُ أحدِّق باستغراب متسائلة كيف لهذه الأرض الحبلى بالأموات أن تزرع الفرح من جديد وتبعث فينا الحياة.

كنت أشمّ رائحة الموت تأتى معطرة بروائح المسك وتغرى بالرحيل والرَّجل الظّل لم يأت بعد!! وأنا مازلت تحت وقع عواصف الذكريات التى تجتاحتنى على طاولة الإنتظار كل يوم.

كنت قد تركت أندريا تائها بين الوجوه يبحث عن شخصيته فى الماضي، كان يتنقل من موقف المذنب تارة، إلى موقف المتذمر تارة أخرى، وموقف المعذب، حاملا رسالة السياسى والده بنيامين لملاحقة

ذلك المواطن المسكين المتشرد الذى أهلكه الدمار والعقاب إن طالب ببيته وأرضه وعرضه.

ومضى وقت طويل على غيابه، أخبرنى فى آخر لقاء بيننا أنه سيلتحق بالجيش، رفضت ثم أشفقت عليه وهو الشخصية المحبوبة عندي.....

وأنا مازلت أنتظر الرَّجل الظّل على الطاولة، وأرتشف فنجان القهوة مع ذكرياتى الموجعة التى كانت تأتى مع كل رشفة قهوة محملة بالحنين والألم، وفى نفس الوقت أترقب لقائى بغسان بعد أسبوع، كما قالت غـادة !!

بين تلافيف الذاكرة

بيروت ٨ يوليو ١٩٧٢..

كان فى كفى عبق من رائحته ووشاح أزرق ألفه على رقبتي، كنت ألملم بهما أغصان عمرى المنكسر، وأندس خلسة بين الظّلال الوارفة لأسمع همسَه وهو يمضى بى عبر مساءات الحلم الجميل.

أغوص فى أعماق ذاتى المتعبة وقد حاولت هذه المرة التعرى من أدرانى والسمو بها إلى الحلم بكينونة الحياة الجميلة معه، أثرثر مع نفسى وأمارس طقوس جنونى خفية، أناجى أعماق ذاتى لأعتق روحى من حزنى الدفين، وأمارس معه جنون الورقة والقلم ورسائل البوح والوطن..

هكذا كان إلى وقت قريب....

برودة مساء شتوى تسرى فى أوصالى المتهالكة، وصوت أنفاسى يردّد برتابة:

ـ غسان لم يتصل هذا اليوم، وقد وعدنى بالحضور فى غضون أيام إلى اسبانيا؟

أثارغياب غسان عجاجاً من الذكريات فى نفسى بعدما انزويت وحيدة لا جليس إلاّ من صوت فيروز التى أصبحت رفيقتى من خلال أيلول، صوتها يملأ فضاء الغرفة الرحبة، وأنا أدندن معها وهى تردد:

"لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي

لأجلك يا بهية المساكن، يا زهرة المدائن
يا قدس.. يا قدس ..يا قدس ..
يا مدينة الصلاة أصلي..."

تسرب العمر فى غفلة منى وكادت الغصة تخنقنى بعدما أشعلت فتيل نار مخبوءة ازداد توقدها بداخلى غياب غسان، وأيلول تظل لصيقة بالنافذة ترقب الرَّجل الظّل من حين لآخر، ثم تحمل حقيبتها وتخرج ربما إلى نفس المكان تبحث عن ظّلّ أندريا بين الوجوه.

عقارب الساعة تدق وتدق، وأنغام فيروز تؤجج دواخل غادة وتزيد من اضطرابها..

ملأت غادة حيز الغرفة الرمادية ذهابا وإيابا، يلفها صمت الإنتظار، ترتشف فنجان القهوة الباردة بصعوبة وغصة المرارة بحلقها تعكر صفو مزاجها، ثم تقف برهة خلف النافذة المطلة على الشارع الكبير وكأن العالم توقف خلف شباكها، ومرة تستوقفها صورتها فى المرآة تتفرس ملامح وجهها المتعب، وتنظر إلى عقارب الساعة الحائطية.

بعد ساعات قليلة، انتشر الخبر كالنار فى الهشيم، وبعد ساعات قليلة، تربعت روحه فوق المقابر، تختار مكان نومها الأبدي.

عقارب الساعة تدق وتدق وفيروز بصوتها الحزين يلف قلقها...

رنّ الهاتف، أسرعت إليه مضطربة وكأنها كانت تنتظره، رفعت السماعة، وأول ما التقطه سمعها حشرجة صوت حزين، باكى قائلا:

ـ غادة ...أنا أبو المظفر.

ردّت متلهفة:

ـ أهلا ..مابك؟

ـ أبو المظفر:

ـ غادة..غسان قتل...قتل.....

أحسّت بصمم فى سمعها، ثم تصرخ فى الهاتف صراخ الفجيعة، وهو يرّد عليها:

ـ غادة ...غادة... غادة...

سقطت سماعة الهاتف من يدها والصوت مازال يردّد:

ـ غادة..غادة...

نزل عليها الخبر كالصاعقة وأحست بالدوار... أسندت ظهرها إلى الحائط من هول الصدمة، تكومت على نفسها والصوت مازال يردّد اسمها....

وضعت رأسها بين كفيها وأجهشت بالبكاء بعدما أطلقت صرخة مدوية فى فراغ الغرفة الضيقة، أمطرت سيلا من العبرات وسيلا من الضحك الهيستيري، وفجأة تصمت مذهولة بعدما فتح القبر فاه واحتضنه فى جوف أعماقه وتركها للصقيع كسيرة.

لم تسمع الطرقات القوية على الباب ولا الأصوات العالية تنادى عليها، والساعة الحائطية مازالت تدق وتدق، وأنغام فيروز لم تتوقف...

الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان

.....

.....

لأجل من دافع وأستشهد فى المداخل.....

.....

نهضت غادة من مكانها كالمشلولة بعدما اشتدّت طَرَقات الباب حتى كادت أن تحطّمه.

فتحت الباب على مصرعيه، حدقت فى الوجوه المذهولة، والتقت عيناها بعينى أيلول التى فَجِعَتها المصيبة مرتين ثم عادت تتكئ على جراحها.

أيلول ظلّت فى مكانها متسمرة، لم تتحرك، ولم تصرخ، فقد جثمت على كاهلها اللحظة الخرساء فأسكتتها إلى الأبد، ورمت بها إلى ذاكرة مشروخة تئن من الوجع وارتمت فى أحضان غادة، لا تعرف كل واحدة من تواسي.

بقيت المرآتان لصيقتان ببعضهما البعض لبرهة من الزمن، ثم انسحبت غادة من بين ذراعى أيلول وانزوت فى الركن بعدما أخذ جسدها المتهالك حيزا من الغرفة الضيقة، وقد تركت أيلول واقفة تحضن الفراغ، تركت الجلبة والأصوات المتعالية التى تسكن المكان، وصوت فيروز يصدح فى الغرفة بعدما سمت بروحها إلى روحه المتفجرة.

سافرت غادة بمخيلتها إلى البداية التى لم تدرك للحظة نهايتها، تعيد شريط ذكرياتها معه، استقر طيفها على تلك اللحظات الجميلة التى كان كلاهما يعبث بخطوط الأحرف، رسائل وكلمات وبوح ووجع،

ووطن بينهما جريح يصارع سهام الطعنات والتخاذل.

أسرعت إلى صندوق الرسائل بالخزانة، أفرغته فوق سريرها، بعثرت رسائله أمامها وهى تنظر إليها معاتبة وتبكى بحرقة شديدة، ترفعها إلى أعلى ثم تعيدها إلى صدرها محتضنة، من كومة الرسائل اختارت واحدة، نظرت إليها بعمق وكأنها تستنطقها أو ترى ملامح وجهه على صفحاتها المكتوبة، غسان لم يكن لها سوى الوطن الجريح، وغادة سوى الحلم الأبدى المتجدد بين حنايا الذاكرة فى قلبه.

لقد كان يحمل قلبا صغيرا يدارى به قلبا كبيرا من الوجع وشتات الوطن والكثير من المقالات والكتب، تسارعت الكلمات بين شفتيها وملامح وجهه مرسومة على صفحاتها، ورائحة دخان سجائره تفوح بين طيّاتها، كأنها أحست بتنهداته الأخيرة تفارقها.

عضّت على شفتها السفلى وكأن ما قرأته لم يرض خاطرها، وسارعت إلى الهاتف تحاول الإتصال كحمامة مهيضة الجناح، كسيرة الخاطر، جريحة.

سقطت سماعة الهاتف مرة أخرى من يدها، وأجهشت ببكاء يمزق الأفئدة، وأيلول تحضنها من جديد وتحاول تهدئتها.

غسان لم يكن لها مجرد رجل يحارب طواحين الهواء لدون كيشوت، بل رمز أمة، والقلب النابض لها كآلاف الشهداء الذين كفنوا بعلم فلسطين..

غسان كان فلسطين، وكان البلبل الذى يغرد فى سمائها والوجع

المتنقل بين الضفة والأخرى.

كان يعشق كوب الشاى الأخضر ويحمل فلسطين والزيتون الأخضر فى قلبه وعلى ظهره حيثما حل به المطاف، وأينما أرست سفنه الشراعية يسكن وجعه.

كان يقول فى رسائله لها:

- "أنتِ فى جلدي، وأُحسُك مثلما أحس فلسطين، ضياعها كارثة بلا أى بديل، وحبى شيء فى صُلب لحمى ودمي، وغيابها دموع تستحيل معها لعبة الإحتيال".

كانت غادة تردّد بداخلها:

كانت رسائله لى صورة للمناضل الذى يحيا من جديد، يحيا من أجل العشق للقضية بعدما هزل الجسد وبقيت الأنفاس تشمّ رائحة الأرض الزكية، المعطرة بأريج دم الشهداء.

كنت أغتسل وجعى بعرق الوطن الذى ينز من جبينه، وأشمّ رائحة الأرض على صدره، وأعشق رجلا دونكيشوتيا أحببته وعشقته على الورق.

فارس شهم يحمل درعا الوطن على صدره، ويرتدى خوذة الحرية، فارس الظّل الحزين يحوم حولي.. كان يسكن فى قلبى وعقلي.

غسان عاشق ثائر وخائب مثل الملايين فى هذا العالم، وهو الذى جمع بين حبين كبيرين، حب الوطن وحب امرأة.

وهو الذى تَعِب من المراكب الشراعية المهترئة، والوقوف على

الأرصفة فى انتظار أحلامه المؤجلة، وهو الذى قفز على أحلامه ليطارد كل فجر جديد خيط دخان بجسده النحيل والمتعب.

وهو.. وهو...

دقات الساعة الحائطية تدق.. وتدق...

كانت العبرات الحارقة تجرح وجنتيها وترسم عليها أخاديد الألم، تتمتم كمن ضاع منها طفلها فى الزحام عبر شوارع المدينة الكبيرة نائحة:

ـ لم يكن فى خاطرى أن أعتذر لأحد، بل فى نيتى أن أركع وأصلى للوطن الذى أنقذ رأسى من حبل المشنقة مرات عديدة، هكذا كان يقول لي...

وكنتُ أقول لهم دائما:

ـ "نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني" الرَّجل الذى أقلق راحتي، وأقلقتُ وجدانَه، رجلا أستعيده فى ذاكرتى التى يسكنها حيا، وهو الذى أتعبَتْه علب الدخان.

هو الرَّجل الذى أنهك جسده المريض بالنقرس وإبر الأنسولين الشيطانية التى تغرز فى وجعه، وهو الطفل المشاكس الذى حُرم من بيت فى وطنه، ومن وطنه، ولم يسمح له العدو بالحياة ففجره إلى أشلاء تناثر عطرها يملأ الأرض... أرض فلسطين.

هو الذى احترق واشتهى وتعذب، وهو الذى افتكت منه الحياة مرغما على الرحيل دون أن يرى حلم الوطن ينتصب أمامه، ثم تعاود رفع رسائله وهى تشمّ عطره فيها وتبكى بحرقة شديدة وتتكلم معها كأنها غسان.....

البارحة .....

البارحة يا غسان استقبلتك بكثير من الفرح وقد تملكنى الخوف والإرتباك وأنا بصحبتك، ولم أكن خائفة على نفسى بقدر خوفى عليك، فنسائم البحر الباردة كانت تلفك بكثير من الحبّ وتهزّ جسدك المرتعش وتنتابك قشعريرة يتلون فيها وجهك بلون الزعفران، ويتواصل سعالك الجاف الذى يعشعش فى صدرك وأنت تحاول أن تخفى وجهك عنى بوشاح أزرق يبرز أخاديد وجهك النحيف، وقد حاولتَ أن تخفى وجعَك عني...

حاولتُ جاهدة أن لا أبدى اهتمامى بذلك، وحاولتُ أمامك أن أتمرد على ذاكرتي، لكننى كنت مشغولة كثيرا بهذا العالم الذى أثقل كاهلى بالحدود وبحبات الكرز التى كنت أداعبها بين أصابعى وأنا فى حضنك.....

الساعة تدق وتدق، وأنغام فيروز فى الفضاء حزينة:

الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان

يبكيان لأجل من تشردوا

لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافع وأستشهد فى المداخل...

.....

.....

.....

وتبكى السماء..

اليوم الجو جنائزى والباب مفتوح على مصرعيه فى بيتها الدمشقى للعزاء.

غادة قبالة الحائط كئيبة تنظر إلى الشارع الطويل تتحسس خطواته عبره، أيلول كظلّها تتبعها من غرفة إلى أخرى....

تجلس غادة على كرسى خشبى هزاز بالقرب من شجرة الياسمين المنتصبة وسط الدّار، وفى الزوايا باقات من النرجس ذكرى من غسان تزين المكان.

العينان مغلقتان والجسد المتهالك يروح ويجئ باهتزاز الكرسى الخشبى اهتزازا خفيفا، وتبدو المرأة كجثّة هامدة، لا يتحرك لها ساكن، ساقان ممدودتان يغطيهما رداء بنى قاتم، ورائحة القهوة الساخنة برغوتها الكثيفة تنبعث من فناجين رمادية تقدم للنسوة.

تتنهد غادة بألم كبير وهى تحاول أن تكفكف دموعها وتتمتم:

آه.. غسان...

لقد صحَوْتُ اليوم على حزن مهيب وصمت مريب وفناجين قهوة مرة كالعلقم من دونك، خذلتَنى برحيلك وقد تركتَنى على كرسى أهزه من وجعى اهتزازا وبعض الرسائل والكتب التى أشم فيها عطرك.

ماذا أقول لهذه الأرض، لهذه الخريطة، أأقول لها أنكَ اقتلعْت منازلى بمعاول ريح عنيدة، وصحوت اليوم على جراحى النازفة، فوجدت نفسى

أركض نحوكَ وأنتَ الهارب البعيد عني، وقد كتبت السماء على جبينك بأحرف من علم فلسطينى ملون بروحك الزكية "كان ثمة رجل اسمه غسان كنفانى ورحل".

آه من وجعي، وقد ملأت الشفقة قلوبهم مني، لم تعد تكتب إليّ، ولم أعد أنتظر رسائلك الطويلة والقصيرة، ولم تعد تغضب مني، ولم تعد تشرب فنجان القهوة معي، ولم تعد تدخن سجائرك فى وجهي، ولم تعد تكتب عمودك اليومى فى الجريدة، ولم تعد تلاقى الأصحاب والخلان، ولم تعد تنتظرنى فى المطارات أو فى الفنادق، ولم تعد.. ولم تعد...

وآه من وجعي..

ماذا أقرأ الآن بعدَك، هل أقرأ عائد إلى حيفا، أم أرض البرتقال الحزين، أم رجال فى الشمس، أم..أم ..

وآه من وجعى يا غسان، وقد هرولت إليكَ مسرعة فوَجدتُك حطاما ورمادا متناثرا، تسافر به الريح مأمورة إلى أرض الشهداء، حمِلَتْه من الحازمية إلى أرض الشهداء وثالث الحرمين.

كنتُ كمقبرة مهيّأة لأن يتوسد تابوتَك ضلوعي، فصرخت الكلمات على شفتى صامتة، مكسورة، جريحة، ونزيف قلبى الدامى طاله الإنفجار، تبخَّرت من أمامي، ولم ألمح خيَالك بناظري، كل ما فى ذاتى نيران تنهش روحى الممزقة أمام جسدك المسجى.

وأنا أصرخ فى وجوههم:

." لا أحد بريء فى مجتمع مجرم".

لمحتُ فى عروق أشلائك النازفة حروفا تتحول إلى بساتين، كما تتحول ألوانها إلى وطن، لم ألحق بك لأوسدك الثرى بيدي، وأن أكفنك وأتمتم فى أذنك لحن الحرية.

لم أستطع أن أحمل ذراعك المفحمة والمعلقة على غصن الشجرة وبقية أشلائك المتطايرة متناثرة فى كل مكان دامية.

لم أستطع أن أسحب خاتم الوفاء من اصبعك، أو أنزع الساعة من يدك التى مازالت تدق وتدق فى أذني.

بقيت ذراعك مرمية تنزف دما، وساعتك فى المعصم تدق وتدق، وصوت درويشى يردّد فى سمعى غاضبا [1]:

"سقطت ذراعك فالتقطها
واضرب عدوك لا مفر
وسقطت قربك فالتقطني
واضرب عدوك بي
فأنت الآن حرٌ
وحرٌ.. وحرٌ"

لم أجدك، ولم أجد جسدك مسجى ينتظر الصلاة، غير أنه كان ثمة رجل اسمه غسان كنفانى فى حياتى ورحل فى ٨ جويلية ١٩٧٢، فشاخت أحلامى وانزوَت هى الأخرى فى مقبرة روحى وبين تلافيف الذاكرة المشروخة.

١- قصيدة مديح الظل العالي.

وظلَّت عقارب الساعة تدق وتدق وتدق، وأنغام فيروز تملأ فضاء الغرفة الرمادية...

وبأيدينا سنعيد بهاء القدس...

بأيدينا للقدس سلام....

بأيدينا للقدس سلام...

.....

.....

.....

.....

"إن اشتقتِ يوماً لقبر حبيبِك، مُرّى به فى الصباح[٢]

وصُبّى عليه من الدمع، صُبّى من الدمع فوق الترابِ،

مصابك فوق الذى نستطيعْ

ستخرجُ عكّا إلى السهل، رافعةً كفَّها للسماءْ.

ألا من رأى وجه كنعان، فى أيّ منفى، نقيم العزاءْ؟!!"

أين أقيم العزاء يا حبيب العمر وأنتَ الذى كنت لا تؤمن بغير الحرية التى لا تأتى إلاّ بالموت، فالحياة متهمة بالخيانة للفاشلين، وجثث الشهداء متاريس لتحويل الموت إلى حياة متجددة فيك.

كان غسان حينما يتكلم ترخى غادة سمعها مندهشة، حالمة وهو يتحدث عن الوطن الجريح، يكشف أمامها خارطة فلسطين ويضع قلمه

٢- عزالدين المناصرة، تَقبل التعازي.....في أيّ منفى.

وسطها قائلا:

ـ هنا كنت أسكن، وهنا بيافا ترعرعت، ومن هنا هُجّرت إلى جنوبى لبنان، وإلى دمشق ارتحلت، ومع هذا الترحال كبر الوجع والحنين، وعُذبت هنا وهناك..

لم يكن غسان يتحدث بلغتهم، كان يتكلم بلغة الكتب ولغة الحرف التى كانت تسكن دواخله كما كان فيديريكو غارثيا لوركا يتحدث بلغة المسرح ولغة الشعر ولغة العزف على البيانو.

كانت غادة تخشى أن تضع يدها على شعره الأسود المجعّد، على سحنة وجهه الحزين الذى يثير فى قلبها الألم والبكاء والرحيل، ورغم ذلك كانت تقول له دائما فى إحدى رسائلها:

ـ يواسينا الحبّ وينثر بسماته على وجعنا وتؤنسنا الذكريات أيام وحدتنا.....

وحينما تتحدث إليه عن الحبّ تقول:

يزهر الحبّ بلعبة المراهقة وينمو بلغة الشباب ويشيخ بلغة انتهى العمر ويعاود التصابى فى ورقة جديدة، انتظر منها أن تكون صفحتى الجديدة معكَ، وهكذا كنتُ أقول لكَ إلى وقت قريب.

ثم تواصل أنينها المرير ولسان خلدها يقول:

كان يمكن لتلك الدموع التى جرحت عيونى أن تتعدى زمن لذّتى معكَ، لكنها كانت مواويل عشقى ومواويل ذاكرتى المشروخة ومواويل ألمي، ملامح زمن اختار فراقنا والطريق اليوم لم يعد طريقنا.

ذات ليلة من ليالى الوجع الباردة، تأتينى محملا بالتعب والإرهاق، تحمل بيدك جريدتك المعهودة وحلمك بين دقات قلبك يخفق.....

أذكر بأحد الشوارع الدمشقية المحاذية للبحروصفير رياح باردة تلملمنا وتعبث بخصلات شعرى الأسود، أعتصر معك الحبّ والمرارة، كنتَ تقف أمامى متعبا، تتحدث كثيرا، ثم تتعب وتصمت لمدة طويلة وتتعب، كنتُ أخشى عليكَ من كلامِك ومن صمتِك الطويل، كنتُ أردِّد بداخلي:

ـ لا تقف أمامى وأنتَ صامت، أريدُ أن يتحرك الصامت بداخلك، أن يُجهز على توتري، لا تشرق ولا تغرب ولا تتوارى عني، أريدُك أن تكون كالظّل تتوارى خلف الأشياء لأننى لا أريد أن يروك.

وكأن عيونك كانت تقول لي:

ما عُدْتُ أحتمل الهجر ولا الترحال ولا الإغتراب، ما عدا العمر يستطيع التحليق فى سنوات عجاف ورياح السموم تغشى خريف اللحظات الهاربة منا.

وأتذكر عندما كنتَ تقول لي:

ما عادت ثورة براكينى تهدأ من شدّة هيجاني، ومن شدّة وجعي؟

وكنتَ تقولُ وتقولُ وتقولُ..

وما عُدْت وما عُدْت وما عُدْت..

وأنا أقول ما تركته وما قاله نزار يعذبنى اليوم:

رباه.. أشياؤه الصغرى تعذبني

فكيف أنجو من الأشياء رباه؟
هنا جريدته فى الركن مهملة
هنا كتاب معا.. كنا قرأناه
على المقاعد بعض من سجائره
وفى الزوايا .. بقايا من بقاياه
.....
.....
.....
.....
آه غسان...

كيف لعينى أن تراك وقلبى يقرؤك السلام وكتاب العشق عندى قد ذبلت واصفرت أوراقه وانمحى حبره بعدما رحلت، فخذ ما شئت مني، فروحى معلقة بين زيتونة وحفنة تراب سُرقت منكَ.

كنتَ تزف الزّهر والضياء على أشلائنا المحطّمة، وتصنع حلم الأجيال الأسرى بتلك الأمنيات التى تنتفض للحزن، تغنى للإنتصارات، تتربص بالأشباح فى كهوفها، تغيب برهة وتعود مزهوا ثم باكيا، نائحا، قلقا، تائها.

هى صرخات الأحرار تدوى فى خُلدك، هو صوت الرصاص الذى يدوى بلا صوت، يغنى للموت القادم كعروس تزين جيدها بلباس الفرح والطهارة.

حينما التقيت درويش فى إحدى المدن كان يقول لى أنه يكتب عن أحلام الأمة، عن عصافير بلا أجنحة[٣] والتى خلقت لتطير وتزقزق، كان عاشقا لفلسطين الأم، وكان الرَّجل الذى أحبّ ريتا وأشعل بركان الثورة بقلبه، وأننا عصافير تعشق الحياة كما الموت.

اختار درويش أن يكون أو لا يكون، واختار جده المسكين الذى ظلّ يراقب المهاجرين الذى يعيشون فى أرضه والتى لم يكن قادراً على زيارتها أن يعيش فوق تلّة تطل على أرضه المغتصبة وقلبه تعصره المرارة وهو يخبئ مفتاح العودة فى خاصرته والحلم بالرجوع ذات يوم.

درويش الذى كان يحمل المنفى بداخله، حيث ترحاله من قريته البروة[٤] التى ولد فيها خسر هو الآخر حلمه مرددا:

خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلى طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا
وخسر درويش "ريتا" قائلا:
"بين ريتا وعيوني.. بندقيةٌ..."
وأنتَ يا غسان ماذا خسرت؟

٣- ديوان شعري لمحمود درويش ١٩٦٠.

٤- موال، محمود درويش

وأنتَ يا حبيب العمر خسرت عمرك وكنتَ، كنتَ أنتَ وأنتَ الوطن، تكتب عن المقاومة وعن البعد الإنسانى فى المقاومة، عن القضية والمركز والشتات، عن المحكومين بالأصفاد حول الأعناق، عن العمر الذى يعانق النار ويبدّد العتمات، تطل من النافذة بسرعة، تتفرس النظرات الخبيثة التى تلاحقك فى الظل، تزيح الستار عن الذئاب البشرية وتغيب فى آخر الزقاق دون أن تلتفت وراءَك، وأبقى وحدى فى الشارع الضبابى أرقبُ ظلَّك حين يظهر خلف الأنظار أو أسافر من دونِك إلى باريس أو الشام حيث ألقاك.

كان يأتى مع الليل صوت شجى يحنُ عليَّ من الوجع، يدثرني، يزملنى أنا غادة المتعبة، يلهبنى شوقا لم أستطع أن أستجيب له، وساعة ملتصقة بذراعك مازالت تدق وتدق فى سمعي..

هى الساعة التى لم تتوقف وأنتَ الراحل من دونها عاريا، وسكون تلك الليلة كان قمرا يضيء السُّدفة الحالكة ولا يختفي، وهوة سحيقة فى حياتى لا تشبه أيامى التى مرت ولا القادمة التى ستأتى وتؤلمني.

اجتاحتنى قشعريرة قوية، اشتعلت لها كل شعيرات جسدى المحموم وأيلول بجانبى تقاسمنى آلامى وأنا أقاسم وجعى بين نارين، بين شهقات تبتلع صمتى وفوضى مقيتة تمد يد الدهشة إلى روحي، تمسح كحل العين بالعبرات وتحفر فى القلب شظايا جسد أشلاؤه المفحمة تحرق لهيب اليقين.

كنتُ أشرع النافذة على المدينة الباردة كل صبح وأستصرخ مردّدة:

هو الوطن عار، هى المدن باكية، هو العمر موجوع، هو الحزن باسم، هى الخطى مثقلى بالألم، وعلى رصيف الشارع تفرقنا، وأصبح المكان رهيبا والسماء تشكو من لوعتى ونحيبي.

وحدى أناجى الليل البهيم بعدما بُحْتُ له بكل أسرارى النارية، وجعلتُ من سحابة ذكرياتهِ فصولا لحكاياتى التى تشتهى السفر إلى عشيقها المسجى.

آه.. غسان.....

اليوم أناجى دمعى وتلك الليالى المتوهجة فى ذاتى بعدك وقد انطفأت ضحكاتك أيها العاشق، وكنتُ فريسة حمى الألم التى تلازمنى طوال عمري، أحملُ حقائب الإنهزام مسافرة من دونِك، تخنقنى رائحة الدم والدخان والكراهية والحسرة ودمعى الحارق.

أعود لغرفتى الباردة، للمدينة التى لم تعد تشبهنى وهى فارغة من دونك؟

أمشى خلف الموكب الحزين على حافة الهاوية، أتخيل ابتسامتك تحادثني، تمازحني، تراقصني، تقبلني.

ليت جدائل شعرى كانت طويلة، لأفك الضفائر خلفى وأمشى كالمجنونة الهائمة على وجهها، تكشف أسرار الوجوه وتلوِّح بالحقيقة فى الأفق غير آبهة بكذبهم وتفضحهم بسائر اللغات، أنا المجنونة التى فجروا عشيقها، أنا المجنونة التى لوّنوا حياة وطنه بالدم القاني.

أنا المجنونة التى اكتوّت بنارهم، أنا الحقيقة الوحيدة التى لم

يستطيعوا محوها من الوجود.

أنا الكذبة التى تتراءى لهم فى المعابد فيصدقونها ثم يبتهجون لكذبهم على أنفسهم تحت وقع كؤوس الشامبانيا.

أنا المجنونة الهائمة، الساجدة لمنفى السكينة، لليقين الذى يسكننى أنك المشتهى، أترجى عفو المطر الذى غسلنى فى العراء أن يعيدك إليّ بوشاحك الأزرق.. وخلف أنينى الصامت ألعق بكائى ونشيجى وصراخى المكبوت.

أنا أيها المطر ساجدة ليقيني، للموت الذى ينازع روحي، وعند بوابة الإنتظار أقف باحتراقى فيدفعنى العابرون إلى نهايتي.

آه.. أيها الوجع الذى تكبلني، فروحى متعبة، أنهكها المشى فى شارعنا العتيق، بين زقاق بيروت أو دمشق أو حلب الشهباء، أفتش عنه.

آه.. غسان....

من يُسكن لوعتى الآن بعد رحيلك، من يكتب لى رسائل الشوق والعتاب والحنين، من يهمس فى أذني، من يسعل فى وجهي، من ينفث دخان سجائره أمامي، ومن ومن...؟

آه غسان....

هو الحبّ الذى يرميك على اليابسة فتزهرعلى أديم الأرض، تكشف أسرار العشق والنضال وبينهما برزخ لا يبغيان، تصرخ وتصرخ بين نهرين هذا عذب فرات وذاك ملح أجاج وجسدك مصلوب فى السماء كأنك تفتدى ذنوب من فى الأرض، وقد شُبِه لهم أنهم فجروك ولكن

روحك مازالت ترفرف فوق روحي.

وبقيت أنا الحلم الذى يقتادهم حيث تدور الأرض على سيمفونية اللحن الخالد فدائي.

وكنت أردّد قولك:

."أنا من شعب يشتعل حبا، ويزهو بأوسمة الأقحوان وشقائق النعمان على صدره وحرفه..ولن أدع أحدا يسلبنى حقى فى صدقي..."[٥]

جلست غادة خلف شرفتها وهى تلتقط أنفاسها من شدّة التعب والقلق والنحيب والمناجاة كل يوم وليلة بعدما تعبت أيلول من تهدئتها وهى الأخرى موجوعة، قالت أشياء وأشياء وقد بعثرها التعب والتوتر، قالت أشياء وأشياء وقد تلاشى همسها الخافت فى جوفها ترقب من النافذة ظلّه وهو يعبر الشارع، قادما بباقة ورد أو متأبطا جريدته.

خلتُ الرَّجل القادم هو أنتَ، كان الرَّجل نحيلا، طويل الساقين، عريض المنكبين، يقف تحت الشرفة، يعكس ظلّه نور الشارع المقابل وهو ينفث دخانه..

كان يشبهك فى كل شيء، لكنه لم يكن أبدا أنتَ.. غسان؟!

التفَّتُ هنا وهناك وكأننى أهرب من رعد الجراح وأنين الذات وقد أمطرت السماء وابلا من المطر الشديد يغسل جراحى المتفسخة.

جمعت بعضى وأغلقت نافذتى وكأننى أجمع أوجاع الأرض كلها فى بعضى المتهالكة، وارتميت على سرير معطر برائحة النرجس الذى يملأ

٥- رسائل غادة السمان ص ٨

فضاء الغرفة.

بجانبى نشوة الإنتصار، وأمامى هزائم المعارك المستحيلة التى كان يحملها السراب ويمضى فى متاهة الأزمنة والمرارة التى ألعقها برحيلك.

ألوذ بصمتى من وطأة الحمى تحت فراش بارد، وأغطى رأسى خشية أن يعاود اللحن المجيء، ويشتهى قبلة الأحلام وأكون حبلى بأشواق اللقاء ساعة السّهد.

مر ليلى صامتا إلاّ من رعشات برق خاطفة تضيء غرفتى المظلمة والباردة، فقد اجتهدت فى مداراة شوقى وتوترى ورعبى كى لا أزيد من آلام أيلول التى لم تعد تحتمل حزنها وفراق الأحبة عنها.

غسان، برحيلك الأمكنة موحشة وباردة، لكنها تذكرنى دائما بدفء حضورك الذى يحضنني، لم يتحول المكان لمجرد أن أتركه إلى وهم كما تركتَه أنتَ ورحلت، بل هو مكان للذاكرة وللجسد وللحلم وشهقة الحنين، والمكان هو المحنة والألم الشديد الذى يتضاعف يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، وسنة بعد سنة، وهكذا كنتُ أراك كل يوم، وكلما أضع حقائب الترحال فى مدينة دمشق فأحس أن صوتك يداعبنى واستحضر كل كلماتك كلمة كلمة.

كان رنين تلك الكلمات يتردّد فى داخلى بقوة ويتلاشى بمجرد أن تهزنى من ذراعى كمن يُعيدنى إلى حياتى وإلى نقطة المكان الذى نحن فيه، لكن بقيتُ تلك الليلة مرعوبة تحت وقع قصف الرعد وأنا أنتظرك،

أنتظر غسان..

غسان لم يأت..لم يأت بعـد... وصوت درويش مازال يتردد فى سمعى قائلا:

"....قد انفجـر..."

ومن هناك صوت فيروز يردّد فى فضاء الغرفة البـاردة:

البيت لنا والقدس لنا

البيت لنا والقدس لنا

وبأيدينا سنعيد بهاء القدس....

بأيدينا للقدس سلام....

بأيدينا للقدس سلام....

للقدس سلام... آت...آت...

.....

.....

.....

.....

العمود الأخيـــر

أعدم لوركا....

يوم مولدك، يذكرنى بإعدام لوركا الذى بُعث فيك من جديد، لوركا لم تشفع له المدينة عشقه لها، أعدم لوركا بالرصاص تاركا وراءه:

"وعرفت أننى قتلت
وبحثوا عن جثتى فى المقاهى والمدافن والكنائس
فتحوا البراميل والخزائن
سرقوا ثلاث جثثٍ
ونزعوا أسنانها الذهبية
ولكنهم لم يجدونى قط"

آه.. غسان...

عند اغتيالك كان عمرك ستة وثلاثين عاما، وأعدم لوركا وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره، وفى نفس الشهر يُغيب الموت جسديكما ولكنه لم يقبر أحلامكما، ثلاث سنوات بينكما كانت كافية لإغتيال تلك الروح المتقدة بالحبّ والعطاء وروح المقاومة.

غسان ولوركا كانا يكشفان عن روح المبدع، عن حبّ الحياة، وعن الجلاّد والقاتل الذى يسلب الحياة.

هكذا كان غسان، وكان لوركا، وكان الجلاّد والقاتل، وكانت الحياة بلون روح المبدع التى مازالت ترفرف فى السماء.

قلت..

كان ثمّة رجل اسمه غسان كنفانى فى حياتى يفوق الحقيقة المطلقة التى ترفض الزيف والركوع ويحوِّل الألم إلى ثورة تشتعل كلما رسم صورة الشخصية الفدائيـة، المناضلة، المقاومة للاضطهاد بكل أنواعه، وهى "الفخر بحب رجل كهذا أهدى روحه لوطنه."[1]

تنهدت فى أعماقى وأنا أواصل الكتابة.

كان غسان الكاتب الوجه الآخر لشخصية المقاوم والثائر والقاسى والمعذب الذى فرقت الأقدار بينه وبين من يحب ليعيش فى المنفى كالكثير ممن فرض عليهم ذلك.

غسان نسجت الملائكة كفنه عبر البرارى وهو يحمل قلبه فى كف يده، دماؤه تشتعل حبا وتفيض ألما، وهو الذى كان يقول:

."كنتُ أُجْلَد من الخارج ومن الداخل دونما رحمة وبدت لى حياتى كلها تافهة..."

لا أعتقد أن شخصية مثل غسان كنفاني، الذى اغتالته يد الإجرام وفجرت جسده أو غيره ممن يحملون قضية أمة، أن يكون الحبّ عدو نضالهم، فالإنسان المحب للحياة يرفض وأد الحياة واغتصاب الأرض والطير والزرع وقتل البراءة وكل ما يغنى للحياة، وبالتالى لا يحوِّله عن هدفه، بل يزيده اصرارا وقوة من أجل الحياة فى وطنه.

ما كان يعانيه غسان من مرض نخر جسده وألم الروح واحتراقها

١- رسائل غادة السمان ص ١٢

بفقدان الوطن، جعل منه انسانا محبا يرفض الذل والاضطهاد والتوارى عن الأنظار.

الحُبّ والنضال هما وجهان لعملة واحدة، أوجه الهزيمة والمرارة والشكوى والعتاب والألم والضياع والحرمان بفقد الوطن والحبيبة، هو نضال من أجل البقاء.

الحُبُّ يكشف بعدا آخر من أبعاد الشخصية الثائرة التى تناضل من أجل الحبّ والسلام، فمن حق هذا المناضل أن يحبّ، ومن حقه أن يعيش لحظة حلم من عمره، هو يدرك أنها قد تكون الأخيرة لكنه يستمر فى نضاله وفى حبه.

كيف نطلب من المناضل أن يكون إنسانا ولا يخفق قلبه ولو لساعات من العمر الباقية؟

وبلغة المناضل العاشق كان يقول غسان كنفانى لي:

- "إن الشيء الوحيد الذى أردته فى حياتى لا أستطيع الحصول عليه، لقد تبين لى أن حياتى جميعها كانت سلسلة من الرفض ..."[٢]

هذا هو مقالى الذى نشرته يا حبيب العمر فى عمودك الأسبوعي، فسامحنى لأننى لم أستطع أن لا أكتب عنك شيئا كى أطفئ لهيب الوداع.....

غادة

٢- المصدر السابق ص ٩٢

صدر للمؤلفة :

- نساء يعتنقن الإسلام (دراسة) نشر دار الحضارة ١٩٩٦.
- الموؤودة تسأل.. فمن يجيب؟ (مجموعة قصصية) دار الحضارة ٢٠٠٣.
- مخالب (مجموعة قصصية) نشر جمعية المرأة فى اتصال ٢٠٠٤.
- قراءات سيكولوجية فى روايات وقصص عربية (الطبعة الأولى عن دار الحضارة ٢٠٠٤ والطبعة الثانية عن دار الحبر٢٠٠٧.
- السوط والصدى (رواية) نشر وزارة الثقافة ٢٠٠٦.
- اعترافات امرأة (رواية) ٢٠٠٧ (طبعة خاصة فى إطار تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، نشر دار الحبر).
- سقوط فارس الأحلام (رواية) ٢٠٠٩ دار نورشاد (الجزائر، ط١)، (ط ٢) عن منشورات نيبور العراق ٢٠١٥.
- اعترافات امرأة (رواية)، الطبعة الثانية عن منشورات الحضارة، وترجمها إلى الفرنسية الأستاذ محمد سحابة بعنوان confession d'une femme (Roman) وصدرت عن دار الحضارة ٢٠١٥.
- أبو راس الناصرى (للفتيان).
- سلسلة حكايات جزائرية رفقة الأديب رابح خدوسي: (الشيخ ذياب - لونجا - بقرة اليتامى - بنت السلطان - الأميرة السجينة - الفرسان السبعة) عن دار الحضارة، وعن اتحاد الكتاب العرب بدمشق مجتمعة تحت عنوان بقرة اليتامى وقصص أخرى ٢٠٠١،

كما ترجمت إلى الفرنسية Algériens Contes وصدرت بباريس عن دار النشر Edilivre 2015.

ونالت الجوائز الآتية :

- جائزة الكاتب الناشئ (قصة السفينة) لجريدة الجمهورية الأسبوعية ١٩٩٣ .
- جائزة مديرية الثقافة للقصة القصيرة ببومرداس ٢٠٠٣.
- الجائزة الأولى فى المسابقة القصصية للموقع الالكترونى مجلة أقلام الثقافية سنة ٢٠٠٦ عن قصتها أنين عاشقة.
- جائزة " فوروم" نساء البحر الأبيض المتوسط بمرسليا - فرنسا - ٢٠٠٢م عن قصتها عذرية وطن كسيح و ترجمت إلى اللغة الفرنسية .
- جائزة الاستحقاق الأدبى عن روايتها اعترافات امرأة، دار نعمان الأدبية بلبنان ٢٠٠٧.
- جائزة فى مسابقة القصة مجلة الابداع العربي، ٢٠١٥ عن قصتها زهـور زيراري.. الشاعـرة السجينة.
- جائزة مسابقة منتدى المثقفى فى أمريكا وكندا عن قصتها الفتى العكّاوى ٢٠١٦.